أعلام المسلمين

٩

السُّلطان مُحمَّد الفاتِح

فاتح القسطنطينية وقاهر الروم

الدكتور

عبد السلام عبد العزيز فهمي



دار القلم

دمشق

أعلام المسلمين

٩



فاتح القسطنطينية وقاهر الروم

٨٣٣ هـ - ٨٨٦ هـ

١٤٢٩ م - ١٤٨١ م

الدكتور

عبد السلام عبد العزيز فهمي

دار القلم

دمشق

الطبعة الخامسة
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص. ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

هـذا الرّجـل

« كان مــن أعاظم سلاطين بني عثمان ، وهو الملك الفاضل النبيل ، العظيم الجليل ، أعظــم المــلوك جهادا ، وأقواهم اقداما واجتهــادا ، وأثبتهم جأشا وقــوادا ، وأكثرهم توكــلا على الله واعتمادا ، وهو الذي أسس ملك بني عثمان ، وقنّن لهم قوانين صارت كالأطواق في أجياد الزمان . وله مناقب جميلــة ، ومزايا فاضلــة جليلة ، وآثار باقيــة في صفحات الليالي والأيام ، ومآثر لايمحوها تعاقب السنين والأعوام . » .

ابن العمــاد

في كتابه « شذرات الذهب »

تمهيد

اقدم الى القارىء المسلم قصة حياة بطل من ابطال الاسلام ، ومجاهد غازٍ في سبيل نشره ورفعة لوائه ، السلطان محمد الثاني العثماني ، الذي حكم نيفا وثلاثين عاما ، تعد من أهم الفترات في تاريخ العلاقات السياسية والحربية بين الشرق والغرب ، أو بمعنى أصح بين الاسلام والنصرانية .

وقد أجمع المؤرخون على أن هذه الشخصية عظيمة كريمة ، تركت آثارا عديدة في كافة المجالات ، أظهرها وضوحا فتح القسطنطينية الذي اصطلح المؤرخون على اتخاذه بداية للعصور الحديثة ، ولم يتم له ذلك لولا أنه كان جنديا وقائدا من أشجع الجند وأمهر القواد ، وسجله التاريخ الاسلامي مجاهدا من أصدق المجاهدين في سبيل الله .

وقد ركّزت في هذه الدراسة على فتح القسطنطينية ، التي

تعد أعظم مفخرة للسلطان الفاتح ، ونال بها البشارة النبوية الكريمة « لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الامير اميرها ، ولنعم الجيش ذلـك الجيش[1] » .

القاهرة في { ١٢ من ذي الحجة سنة ١٣٩٣ هـ .
٥ مـن ينايـر سنة ١٩٧٤ م .

المـؤلف
عبد السلام عبد العزيز فهمي

---

(١) رواه الامام احمد والحاكم عن بشر الغنوي ، كما في كنز العمال .

الفصل الأول

الأتراك العثمانيّون

ـ كيف نشات الدولـة العثمانية ؟.

ـ الحيـاة التركية العثمانية وعوامـل النصر .

ـ شخصية السلطان محمد الفاتـح وتاريخ حياتـه .



الأتراك العثمانيون

نشأت الدولة العثمانية في فترة كان الاسلام يلاقي فيها هزائم عسكرية متعددة ، فقد استطاع هولاكو خان حفيد جنكيز خان السفاح المغولي الاستيلاء على بغداد ، والقضاء على الدولة العباسية ، التي كانت رمزا لمجد قديم وملك وارف الظلال ، ودخل المغول بغداد مخربين مدمرين ، وجعلوا حاضرة الاسلام ومدينة المنصور وعاصمة العباسيين خرابا ، وكان ذلك في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي .

وفي الوقت الذي كانت فيه قوى الاسلام تنحل وتتساقط وتوشك على الانهيار في الشرقين الادنى والاوسط ، كانت قوى الاسلام الغربية في الاندلس تتلاشى أيضا رويداً رويداً أمام قوات النصرانية الزاحفة . وهكذا نجد الشعوب الاسلامية مهددة بخطرين عظيمين من الناحيتين الشرقية والغربية ، من ناحية التتار القادمين من شرق آسيا ، الذين حطموا امامهم الحضارة الاسلامية الزاهرة وأبادوا الكثير من المسلمين ، ومن ناحية النصارى في أوروبا .

ولحسن حظ الاسلام والانسانية ان خصميه العنيدين في ذلك الوقت لم يتفقا ، لان كلاهما كان يهدف الى تدمير ديار

الاسلام بطريقته الخاصة ، فالمغول كانوا يبغون السلطة والسيطرة على شعوب الارض مهما كانت الحضارة والتراث والديانة . على عكس نصارى أوروبا الذين كانت معاولهم تستهدف الاسلام والعقيدة الاسلامية وتريد أن تنال منهما .

وفي هذه الفترة التاريخية القاتمة من تاريخ الاسلام ظهرت قوىً فتية ذات حيوية فائقة ، وأخذت تعمل على اعادة مجده من جديد ، وتستضيف الشاردين من العلماء والادباء ، والجند الفارين، والقبائل الهائمة على وجهها . هذه القوى الجديدة هي: قوة الاتراك السلاجقة ، وقوة مصر الاسلامية المملوكية ، وقوة المغرب الاقصى . وكانت اقوى هذه القوات وأكثرها اندفاعا وشبابا قوة الاتراك السلاجقة في الاناضول .

جدد الاتراك شباب الاسلام بما قدموه من قوة بشرية هائلة بعد ان اكسبوها حيوية جديدة ، وأصبحوا حربا على الدولة البيزنطية ، يقتطعون منها بين الحين والحين جزءا من اراضيها ، حتى أصبحوا مالكين لآسيا الصغرى ، مقيمين فيها ، قريبين من العاصمة القسطنطينية . وأستطاع الفرع السلجوقي التركي الذي حكم آسيا الصغرى مدة ثلاثة قرون ، بشجاعته ومهارته السياسية ، أن يوقع الهزائم بالامبراطور البيزنطي ، الى أن هبطت الى تلك البلاد قبيلة تركية أخرى فارة من أمام قوات التتار ، وتفرعت من هذه القبيلة مجموعة صغيرة تمكنت بعد فترة قصيرة من الزمن من انشاء الدولة العثمانية .

كيف نشأت الدولة العثمانية ؟ :

العثمانيون هم ابنــاء قبيلة « قايي خــان » من قبائل غــز الخزر ، بدأت تتحرك شطر الغرب عندما زحف المغول تحت قيادة جنكيز خان ، واجتاحوا ايــران في بداية القرن السابع الهجري . وكلما زحف المغول شطر الغرب ابتعد الترك عنهم وشرعوا يتقدمون الى ديــار الاسلام ، وفي جملتهم قبيلة « قايي خان » برئاسة سليمان شاه . وقد قدمت هذه القبيلة الــى كرمان ، وشاركت السلطان جلال الدين منكبرتي الخوارزمشاه حروبه ضد المغول ، وعندمــا دارت الدائرة على الخوارزمشاه وتفرّقت أجناده ولــى سليمان شاه وجهه شطر كردستان ، ثــم رحل عنها الى أرزنجان حيث المراعي الخضراء والبعد عن مسارح القتال ، ولبث سليمان شاه وقومه في مقرهم الجديد سنين عديدة حتى بلغه موت جنكيز خان ، وظن أن الخطر المغولي قد زال والبلاء قد انقشع ، وساوره الحنين الى العودة الــى موطنه السابق بقبيلته التــي كان عددها زهــاء خمسمائة الف نسمة .

وهكذا رأى سليمان شاه ان يعود برجاله الى نجــاد آسيا الوسطى بعد سكون العاصفة المغولية ، وارتحال امرائهم الى «قره قورم » عاصمتهم لمبايعة من يخلف جنكيز في زعامة المغول ، لكنه غرق عند مخاضة على نهر الفرات قرب حلب عند قلعة جعبر عام ٦٢٩ هجرية (١٢٣١ م) قبل أن يبلغ غايته ، ولا يزال قبره هناك معروف باسم « ترك مزاري » أي مزار الترك .

والظاهر أن أولاد سليمان شاه لم يكونوا كلهم على رأي والدهم في الرحلة الى خراسان ومنها الى نجاد التركستان بأواسط آسيا ، لانهم لم يلبثوا ان انقسموا عقب موته ، فأصر أكبر أولاد سليمان ومعه ثاني أخوته على مواصلة السير الى غاية أبيهم ، فتبعهم اكثر العشائر ، في حين استدار « ارطفرل » واخوه الاصغر « دينـدار » بمن آثـر البقاء معهما من الاسر التركية التي لم تكن تعدو الاربعمائة ، واتجهوا جميعا الى بـلاد آسيا الصغرى من جديد . وبينما هم سائـرون على مقربة من حدود دولة سلاجقة الروم وقع نظرهم على جيشين متلاحمين غير متكافئين يقتتلان ، فانضم أرطفرل برجاله الى الجيش الذي كاد ينهزم ، فانتصر بهم على جيش من المغول بقيادة «اوكتاي ابن جنكيز خان » الذي عهد اليه اتمام فتح آسيا الصغرى . وكافأ عـلاء الدين السلجوقي سلطان « قونيه » منجده أرطفرل باعطائه أرضا واسعة ، وبالغ في البذل لـه اعترافا منه بحسن بلائه ضد أعدائه فجعله أميرا على مقاطعة « اسكي شهر » ولقبه « بسلطان اوني » أي مقدمة السلطان ، واتخذ الامير الجديد «الهلال» ـ شارة سيده السلجوقي ـ شعارا له على اعلامه وبيارقه ، وهو الرسم الذي لا يزال تخفق بـه رايات الترك وبعض الدول الاسلامية حتى اليوم .

وفي عـام ٦٥٦ هجرية (١٢٥٨ م) ولـد لارطفرل ابنه عثمان الذي تنتسب اليه الدولـة العثمانيـة ، وعندما انتزع عثمان في صباه قلعة « قره جـه حصار » وما حولها من الدولة البيزنطية كافأه سلطان قونيه علاء الدين الثالث السلجوقي على ذلك بأن رقاه

الى مرتبة الامراء ، وارسل له لواءً أبيض وآلات الموسيقى ومنشورا بامارته .

وبينما كان عثمان شاه يواصل تقدمه في القسم الشمالي من آسيا الصغرى داخل الحدود البيزنطية ويقسم فتوحاته على أولاده وقومه ، اذ تقدم المغول بقيادة غازان خان الى آسيا الصغرى من جديد وكان ذلك في سنة ٦٩٩ هجرية (١٣٠٠ م) ، فاضطر آخر سلاطين سلاجقة الروم هناك الى أن يلجأ الى الامبراطور البيزنطي هربا من وجههم ، لكنه غدر به وقتله ، فكانت فرصة مواتية لعثمان استقل فيها بامارته ، ولم يلبث هو وأبناؤه أن ضموا الى مملكتهم الامارات التركية الاخرى التي قامت في آسيا الصغرى بعد الغزو المغولي ، وصار سكانها جميعا يعرفون بالعثمانيين . وضرب عثمان السكة باسمه ، وأجرى الخطبة له ، وتسلم من حميه الشيخ « أدبالي » شيخ الطرق الصوفية منطقة الجهاد بوصفه غازيا مجاهدا في سبيل الله . واتخذ من « يني شهر » (أي المدينة الجديدة) عاصمة له وسمى نفسه « بادشاه آل عثمان » أي سلطان العثمانيين . وصار من رسوم وعادات السلاطين العثمانيين باستانبول فيما بعد أن يتقلدوا سيف عثمان من قبل امام جامع أبي أيوب الانصاري حيث تتم البيعة لهم .

وأخذ عثمان ينظم أملاكه ويوسع من نطاقها ، حتى بلغت فتوحاته البحر الاسود وبحر مرمرة، وجعل يقتطع الاراضي البيزنطية حتى لم يبق أمامه غير مدينة « بروسه » وهي التي فتحها قبل

وفاته ابنه « أورخان » بعد حصار طويل ، فصارت حاضرة الدولة وثَوى فيها عثمان في مقبرة فخمة بعد وفاته . وسرعان ما شيّد في بروسه منشآت اسلامية رائعة ، وصارت قبلة لجميع الاتراك القادمين من نجاد آسيا الوسطى . وامتاز عصر عثمان بأنه جعل المسلمين من أهلها ومن الترك أمة واحدة ، كذلك دخل مع الترك عناصر مختلفة وشعوب متباينة من الاغريق والمجريين والبلغار والالبانيين والصقالبة ، وجعل من هؤلاء وأولئك أمة واحدة تمتاز بالقوة ، واصبح اسم عثمان لها رمزا وشعاراً .

وكما أنشأ عثمان الشعب العثماني ، جعل ابنه أورخان (٧٢٦ – ٧٦١ هـ) (١٣٢٦ – ١٣٥٩ م) من ذلك الشعب دولة تقوم على أسس ادارية وحربية وطيدة الاركان . وانتقل الجيش العثماني من نظام قبلي الى نظام حربي ممتاز ، فأصبحوا أكبر قوة في آسيا الصغرى ، وصاروا أعظم دولة في البلقان بعد أن تمكن السلطان مراد الاول الذي خلف أباه أورخان (٧٦١ – ٧٩١ هـ) (١٣٦٠ – ١٣٨٨ م) من كسر قوتي : الصرب ، والبلغار ، في موقعتي « ماريتزا ، وقوصوة » في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي . فوقع البلقان وجزء كبير من شرق أوروبا تحت أقدام العثمانيين ، حيث لم يكن فيه غير عناصر منحلة . وبينما كانت دول البلقان النصرانية في حالة من الفوضى والاضطراب والتفكك ، كانت توجد بين العثمانيين روابط متينة واهداف واضحة محددة . وقد لاقى نجاح الاتراك العثمانيين في دحر أوروبا صدى عميقا في جميع العالم الاسلامي ، وخاصة في بلاد الترك ذاتها ، مما شجع

الاتراك على الاستمرار في الهجرة من أواسط آسيا ، تجمعهم اهداف ممثلة في : دين واحد ، ونظام واحد ، وغاية واحدة . ومن حسن حظ العثمانيين أن زاد عدد الاتراك الهاربين من أواسط آسيا أمام جحافل التتار ، فامتلأت بهم آسيا الصغرى وأملاك الدولة العثمانية في أوروبا ، فازدادت بهم قوة ومنعة .

وإذا كان عثمان قد أسس الدولة ، وأورخان قد أرسى قواعدها ، ومراد الاول قد أعلى من شأنها ، فان بايزيد الاول والملقب بالصاعقة (يلدرم) — لحمله على أعدائه في معارك القتال بطريقة خاطفة وسريعة ، كانت تحدث آثارها السيئة بينهم وتبعثر اجنادهم — ان بايزيد هذا — وان كان قد صادفه سوء الحظ بغزو التتار لبلاده — كاد أن يقضي قضاء تاما على الامبراطورية البيزنطية لو امتاز بالتبصر والحكمة وحسن السياسة ، فقد قضى نهائيا على مملكة البلغار ، وفتح بلدانها الواحد بعد الآخر . كما تمكن من القضاء على قوة الصرب تماما واخضاع أجزاء من ألبانيا ، ثم اعطى أوروبا درسا قاسيا عندما أرادت ان تتحدى قوة العثمانيين ، حيث قضى على قوة التحالف الاوروبي الصليبي في موقعة « نيكوبولس » في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي .

وربما كان بايزيد مستطيعا فتح القسطنطينية ، تلك المدينة الخالدة . لولا تردده وضعف أسطوله ، وعدم استكمال استعداده ، وظهور « تيمورلنك » على مسرح الاحداث . فقد أرسل تيمورلنك رسالته الشهيرة الى بايزيد ينذره فيها بتسليم مافي حوزته من

أملاك وهو يحاصر القسطنطينية ، الامر الذي دعاه الى رفع الحصار عنها والتحرك شطر الشرق لمواجهة عدوه . وبدا تيمورلنك هجومه في ربيع عام ١٤٠٢ م ، فتقدم في قوات كثيرة كثيفة تبلغ السبعمائة الف ، في حين لم يتيسر لبايزيد الخروج في أكثر من مائة ألف رجل . ورغم ذلك شق تيمورلنك طريقه وسط الاملاك العثمانية بحذر بالغ ، متجنبا الاشتباك بقوات بايزيد ، حتى وصل الى سهل « جبق آباد » الذي تستقي منه المدينة ، وتحصن الجناح الآخر في خنادق ومتاريس قوية ، وأصر بايزيد على خوض المعركة برغم إلحاح قواده عليه في تجنب رمي قواته في معركة فاصلة ، لما كان عليه جيش العثمانيين من قلة الاستعداد مع كثرة قوات تيمور . واتجه بايزيد بادىء الامر الى الشمال من عدوه ، ثم ما لبث ان سحب فريقا آخر من جنده ، وجعل يقذف بهم لتصيد أجناد عدوه ، في حين انتشرت بقية قواته على هيئة دائرة بغية الاحاطة بالعدو ولإكراهه على خوض المعركة ، وهاجم الفرسان الصربيون جند تيمور في حماسة بالغة ، لكن بايزيد طلب الى جنده ان يرتدوا خشية ان يطوقهم العدو ، فاذا بقوات تيمور تسبقهم الى احتلال مواقعه الاولى في الشمال ، وقد قطعوا موارد الماء عنهم ، وتابع تيمور تقدمه ، فلم يشأ بايزيد ان يرتد ، وخرج من صفوف جيشه الكثيرون عندما رأوا أمراءهم وأعلامهم ترفرف ضمن اعلام قوات تيمور ، واضطرب الموقف وتأكد بايزيد من هزيمته وضياع ملكه ، فثبت ومعه حوالي خمسة آلاف من الانكشارية في وجه تيمور وجنده ، فقاتلوا جميعا قتال

الابطال حتى لم يعد في طوق المقاومة أن تدفع الهزيمة أكثر مما فعلت ، فلما جـن الليل حاول بايزيد الهرب ، لكنه قبض عليه ، وحمله تيمورلنك في قفص من حديد معه الى عاصمته في أواسط آسيا ، ومكث هناك الى ان مات في العام التالي حزنا وكمدا .

ولحسن حظ العثمانيين ، فانه بالرغم من الحرب الاهلية التي قامت بين ابناء بايزيد واستمرت احدى عشرة عاما ، استطاع احدهم وهو السلطان محمد الاول ان يوحد قوى العثمانيين من جديد ، وان يتبع سياسة التفاهم لتثبيت دعائم الدولة . ومن حسن حظهم ايضا ان زاد عدد الاتراك الهاربين امام جحافل التتار ، فامتلأت بهم آسيا الصغرى واملاك الدولة العثمانية في اوروبا ، فازدادت قوة الدولة من الناحية الحربية بهذه العناصر الجديدة .

وفي عهد مراد الثاني (٨٢٤ـ٨٥٥ هـ) . (١٤٢١ـ١٤٥١م) ـ والد السلطان محمد الفاتح ـ سيطر العثمانيون على آسيا الصغرى والبلقان ، واكتسحوا شبه جزيرة اليونان ، وهزموا المجريين والالبانيين ، وبذلك بَعد نهائيا الخطر الاوروبي ، فأصبح الاتراك في مأمن من ناحية الدانوب ، والزم الامبراطور البيزنطي بدفع الجزية ، ولم يبق له من ممتلكات الدولة البيزنطية الا القسطنطينية وضواحيها ، فكان الاستيلاء على هذه المدينة مهمة اعظم سلاطين هذه الدولة ، وهو السلطان محمد الثاني الملقب بالفاتح لفتحه هذه المدينة .

وهنا نجد أنفسنا ملزمين بالتحدث عن السلطان مراد الثاني والد الفاتح ، لما لأحداث عصره من تأثير على نفسية ابنه وتكوين شخصيته ، فنجد ان مرادا لم يكن عندما تقلد سيف آل عثمان في « بروسه » يتعدى الثامنة عشرة من عمره ، لذلك استهان « عمانويل » القيصر البيزنطي بشأنه لصغر سنه ، فأطلق عمه الامير « مصطفى بن بايزيد » وهو الذي كان قد انقطعت أخباره بعد واقعة « أنقرة » برغم ماكان قد أبداه تيمور آنذاك من اهتمام بالغ للوقوف على حقيقة مآله ، والتف حوله خلق كثير من الترك والصرب ، ونادى بحقه في عرش آل عثمان ، وطلب مساعدة القيصر العسكرية على ان يرد الى البيزنطيين اغلبماانتزع منهم من مدن وحصون ، اذا ماتم له استخلاص الملك من ابن اخيه . وحالفه التوفيق أولا فكسر الجيش العثماني وقتل قائده بايزيد باشا ، ثم عبر الدردنيل يريد الاناضول ، لكن مرادا رده عنها وما زال يطارده حتى اعتصم « بغاليبولي » ، فاقتحمها عليه بمعاونة القائد الجنوي « أدورنو » فأسره مراد ، ولاقى الامير مصطفى حتفه بعد أن عرّض الدولة العثمانية لنكسة أشبه بتلك التي واجهها جده بايزيد عندما فاجأه تيمورلنك في الاناضول .

واكتفى مراد الثاني بقتل عمه الباغي والتغاضي عن محرضيه ، وعزم على فتح القسطنطينية وحاصرها حصارا شديدا حتى كادت تسقط في يده ، لولا ان اضطر الى الانصراف عنها

لاخماد ثورة أثارها عليه في آسيا الصغرى أخ صغير في الثالثة عشرة من عمره يدعى مصطفى أيضا ، بتحريض من الامبراطور البيزنطي وعون من أمراء القرمان ، وتقدم بقواته العديدة وشرع يحاصر بروسة نفسها . وبعد أن قضى مراد الثاني على ثورة أخيه الاصغر عاد الى أوروبا من جديد ، فحاول ان يقتص من امبراطور الروم وقيصر القسطنطينية بالاستيلاء على « سالونيك » مما اضطر البنادقة الى صلحه على ان يترك لهم المدينة نظير جزية سنوية كبيرة ، فأقر لهم مراد الثاني بذلك ، واكتفى بما انتزعه من البيزنطيين من مدن وحصون على شاطىء البحر الاسود . وما ان شعر مراد الثاني بمراوغة البنادقة وتحرشهم به حتى انقض في بداية عام ١٤٣٠ م من جديد على « سالونيك » ، ودخلها عنوة واستقر المسلمون بهذا المرفأ التجاري الكبير . وحاول السلطان مراد الثاني بعد ذلك ان يبسط نفوذه شمالا على البلقان، فصد عند بلجراد عام ١٤٣٢ م ، كما فشل قواده في الاستيلاء على مدينة « هرمنشتاد » المجرية .

بعد ذلك سيّر السلطان مراد الثاني قائده شهاب الدين على رأس جيش كبير لغسل مالحقه من عار ، فلم يكن نصيبه عند « فاسباج » خيرا من نصيب سابقه عند « هرمنشتاد » ، وبعثت الهزائم التي نزلت بالعثمانيين فكرة الحروب الصليبية في نصارى أوروبا من جديد ، فانتهز أمراء الصرب والبشناق « البوسنة » والافلاق والمجر فرصة انشغال السلطان مراد الثاني

بثورة القرمانيين في أملاكه الآسيوية ، فزحفوا بجيش عظيم بقيادة « هونياد » ، وهو قائد ترنسفالي يسميه بعض المؤرخين « فارس الافلاق الابيض » وهو الذي اجتذبت شهرته الكثيرين من مختلف البلاد الاوروبية ، فتطوعوا في الحرب تحت لوائه . واجتاز « هونياد » بجنده جبال البلقان وممراته الوعره في جرأة ومهارة نادرة ، اذ كان الفصل شتاء والمسالك شديدة الانحدار ، صخرية ضيقة ، تكسوها الثلوج ، فالتقى بالاتراك عند « جالوواز » فيما بين « صوفيا وفيليپوپوليس » وأوقع بهم الهزيمة في أواخر عام ١٤٤٣ م وانتصر عليهم ، ولكنه بدلا من ان يسير الى « أدرنه » ويستفيد من نصره اضطر بدافع الزمهرير للرجوع الى مدينة « بودا » التي كان قد خرج منها . وأرغم السلطان مراد الثاني بعد الانكسار العظيم الذي أصاب العثمانيين في أوروبا أن يهادن نصارى اوروبا ، وأبرم معهم معاهدة صلح لمدة عشر سنوات في « سيزجادن » وذلك في شهر يوليو عام ١٤٤٤ م (٨٤٨ هجرية) تنازل فيها عن الصرب واعترف « بجورج برانكوفيتش » أميرا عليها . كما تنازل عن الافلاق للمجر ، وافتدى زوج ابنته « محمود شلبي » الذي كان قائدا عاما للجيوش العثمانية ، بمبلغ ٦٠ ألف دوقية . وقد حررت هذه المعاهدة باللغتين التركية والمجرية واقسم « لاديسلاس » ملك المجر على الانجيل كما اقسم السلطان مراد بالقرآن على ان تراعى شروط المعاهدة بذمة وشرف،

وحين فرغ مراد من عقد الهدنة مع أعدائه الاوروبيين عاد الى الاناضول ليفاجأ بخبر موت الامير علاء الدين اكبر ابنائه ،

الذي شاركه في حروبه الآسيوية ، فتمكن الحزن والحسرة منه فقرر ان يعتزل الناس ، فنزل لابنه محمد الثاني عن العرش ، واعتكف بالاناضول ينشد الراحة والسلوة .

غرّ اعتزال السلطان مراد الثاني الدول النصرانية بعد ان انتصروا عليه ، وعلا صوتهم ، وأرادوا الاستفادة من الموقف ، فنقضوا عهدهم ولم يكن قد انقضى شهر على تهادنهم مع العثمانيين . وراح البابا « أوجانيوس الرابع » يحرض الملوك على طرد الترك من اوروبا ، وما زال مبعوثه الكاردينال « كولان » بملك المجر « لاديسلاس » الذي وقع اتفاقية الهدنة مع السلطان العثماني واقسم على الانجيل باحترامها ، حتى اقنعه بعدم الوفاء والالتزام بأي اتفاقية مع اعداء النصرانية . وكذلك فعل مع « هونياد » الذي أصر اول الامر على الوفاء بعهده اصرارا شديدا، حتى اذا مالوحوا له بملك بلفاريا نزل عن اصراره على شرط ارجاء الزحف بعض الوقت ، حتى يكون الترك قد أخلوا بلاد الصرب نهائيا وفقا لما تعهدوا به ، فيحتلها النصارى عندئذ دون عناء وتتخذونها قاعدة لعملياتهم الحربية .

ومـا ان علم مراد الثاني بذلك كله حتى خرج من عزلته ، وجلس على العرش العثماني من جديد ، وتسلم القيادة العسكرية العثمانية ، وعبر البسفور ومعه اربعون الفا من خيرة الجنود العثمانية ، على سفن الجنويين نظير دوقية واحدة عن كل جندي ، دون اكتراث باسطول البنادقة الذي كان يتسكع في الدردنيل

وعنـد « جاليبولي » ثم اسرع للقاء الجيوش الصليبية التي كان اغلبها من المجر وبولندا وفرنسا ، وكانت قد عبرت نهر «الدانوب» حتى وصلت الى سواحل البحر الاسود ، فاستولت على حصون عديـدة هناك ، واكتسحت من امامها كل قوة عثمانية اسلاميـة الى ان بلغت « وارنه » مفتاح الروماللي (الاملاك العثمانية في أوروبا) فحاصرتها . وهناك تقدم السلطان مراد الثاني لقتال اعدائـه في سهل منبسط تحت اسوار المدينة . واقتتل الفريقان ، ودارت بينهما معركـة رهيبة كاد يكـون النصر فيها للنصارى نتيجـة حميتهم الدينية وحماسهم **الزائد** ، والتقى الملك « لاديسلاس » بالسلطان مراد وجها لوجه واقتتلا ، ودارت بينهما معركة رهيبة ، نمكن فيها السلطان مراد العثماني من قتل ملك المجر الشـاب ، فقـد عاجله بضربة قوية من رمحه أسقطته من على ظهر جواده فأسرع بعض الانكشارية وجزوا راسه ، ورفعوها على رمح مهللين فرحـين .

وكان لمنظر راس الملك « لاديسلاس » المجري والدم يتقاطر منها أثر شديد على جموع الصليبيين ، فاستحوذ عليهم الفـزع والهلع ، فحمل عليهم المسلمون حملة قوية ، بددت شملهم وفرطت عقدهم ، وهزموهم شر هزيمة ، فولوا مدبرين يدفع بعضهم بعضا ، واكتفى السلطان مراد الثاني بذلك النصر ، ولم تفارقه زهادته في الدنيا والملك ، فنزل للمرة الثانية عن العرش لابنه محمد الثاني ، وعاد الى عزلته في « مغنيسيا » بالاناضول ليقضي بقية عمره .

ولم تشأ الاحداث ان تترك السلطـــان مراداً الثاني في خلوته هادئا هانئاً ، فقد وافته الأخبار بثورة قام بها الانكشاريةفي «أدرنة» مستهينين بالملك الشاب محمد الثاني الذي كان لايزال فتى حديث السن ، وخشي بعض رجال الدولة ان يستفحل الشر ، ويعظـــم الخطر ، وتسوء العاقبة،فبعثوا إلىالسلطان مراد الثانييستقدمونه ليتولى الأمر بنفسه ، لما له من هيبة ووقار في نفوس الجند. على انه لم يكن من السهل إنزال السلطان الشاب محمد الثانيعن عرش السلطنة مرة أخرى ، فكان رغم صفر سنه صعب المراس ، قوي الشكيمة ، فاحتالوا عليه بأن خرج به احد الوزراء إلى رحلة صيد ــ وهي احبُ رياضة إليه ــ استغرقت عدة ايام،جاء خلالها السلطان مراد الى «أدرنه» وقبض على زمام الأمر ، وخضع له الانكشارية. ولما عاد محمد الثاني من رحلته أدرك ما دُبّر له في الخفاء ، ولم يجد بداً من الإذعان للأمر الواقع ، وبايع والده ، وأظهر له الطاعة والخضوع ، وارسله والده بدوره ليكون حاكما على «مغنيسيا» بالأناضول ، وبقي السلطان مراد الثاني على العرش العثماني إلى آخر يوم في حياته ، وقد قضاها في الغزو والفتح .

واراد السلطان مراد الثاني إرضاء ابنه محمد بعد وصوله الى ادرنه ، فاحتفل بتزويجه بابنة سليمان بك أمير إمارة ذيالقدر واشهر امراء آسيا الصغرى ، وكان ذلـــك في أواخر سنـــة ٨٥٤ هجرية (١٤٥٠ م) ، ثم ذهب محمد مع عروسه الى «مغنيسيا» ليمارس حكمه ، ولم يطل به المقام هناك فقد وصله بعد قليلنعي

والده الذي توفي في الثالث من شهر المحرم سنة ٨٥٥ هجرية (٥ فبراير ١٤٥١ م) فأسرع الى «أدرنة» ووصلها على ظهر جواده، واستقبله كبار رجال الدولة والعلماء ، فعزّوه في وفاة والده، كما قدّموا إليه تهانيهم بالسلطنة ، ثم توجه الركب السلطاني الى السراي «بأدرنة» . وفي اليوم السادس عشر من شهر المحرم سنة ٨٥٥ هجرية (١٨ فبراير ١٤٥١ م) تولى السلطان محمد الثاني عرش آبائه وهو في الحادية والعشرين من عمره ، ليقوم بأكبر مهمة سجلها التاريخ ، بفتحه مدينة القسطنطينية .

الحياة التركية العثمانية وعوامل النصر :

لاشك أن الروح العثمانية الاسلامية ، وجهاد السلف وما تضمنه من عوامل النصر والنجاح ، وروح الانضباط التي يتحلى بها التركي — الذي هو عماد الدولة العثمانية الفتية — هي التي شجعت السلطان محمد الثاني على القيام بفتوحاته العسكرية وساعدت على انتصاره . وكانت العثمانية أمل الجميع ، مسلمين ونصارى. وهذا دليل قاطع على أن الدولة التي نحن بصددها كانت قوية عادلة سمحة ، ذات قوانين اجتماعية سليمة ، وتسامح ديني ظاهر .

كانت الدولة العثمانية دولة مسلمة تتبع المذهب الحنفي ، حديثة العهد بالاسلام ، شديدة التمسك به ، كثيرة الحماس له ، سبّاقة الى الجهاد في سبيل نشره . فكان الدين الإسلامي مفخرتها، وأداة وحدتها ، والجهاد في سبيل الله وسنة رسوله من الدوافع التي تحفزها للحياة والبقاء والانتصار .

جعل الأتراك العثمانيون في باكورة حياتهم الجهاد غرضاً من أسمى الأغراض التي ترمي إليها دولتهم ، وتوسيع رقعة الإسلام من أهم أهدافهم ، وزيادة عدد الذين ينطقون بالشهادتين من أعظم غاياتهم . فهم كالعرب في بدء حياتهم الإسلامية ، كل تركي ككل عربي محارب بطبيعته ، لاقيمة للرجل الا بسلاحه ، ولا مركز له إلاّ بسابقته وعمله وجهاده .

وكان يساعدهم على ذلك أنهم كانوا لايزالون في شبابهم، ولا يزالون يملكون القوة الكافية ، ولديهم حيوية لم ينضب بعد معينها ولم تفارقهم طول تاريخهم حتى في أشد أوقات محنتهم ، فهم شعب جديد لايزال يتمتع ببساطته الأولى ، ولم تفسده المدنية ولم تغرّه مباهج الحياة المادية والثراء ، ولم تسكره الانتصارات ، ولم تفتنه الحضارات المضمحلة التي كانت منتشرة في كل البلاد التي هاجر إليها والتي فتحها . ولكنه استفاد من كل هذه الحضارات، فأخذ منها أحسن مافيها ، واقتبس كريمها ، وأهمل رديئها . وكانت تتأصل فيه صفات السيطرة والميل للفتح والقهر ، وتشرّب الميول والأفكار التي تساعد على القوة والميل للتجمع حول زعيم لفرض الفتح والانتصار والحرب . وكانت عنده المقدرة على الحكم والإدارة . واستفاد من الحضارة العربية نظاما دينيا واجتماعياً وقانونا إسلاميا لازال محتفظا بحيويته ونقائه وصلاحيته للبقاء . وأخذ عن الثقافة الفارسية الشيء الكثير ، وطعّم لغته بكلماتها ، وسار في أدبه وتدوينه لتاريخه على نمط فارسي صرف ، حتى

اصبحت اللغة التركية والثقافة العثمانية نسخة مكرره من الثقافة الفارسية الاسلامية ، بل وأكثر من ذلك ظلت اللغة الفارسية لغة العثمانيين الرسمية في مكاتباتهم ودواوينهم الى عهد مراد الأول ولغة البلاط حتى نهاية عصرهم . ولا يخلو ديوان شعر تركي إلا وفيه قسم فارسي يشيد بتعلق الأتراك بهذه اللغة الاسلامية الجميلة . وأحاطت بالعثمانيين بيئة أدبية شعرها الفارسي شعر صوفي كأعلى مايكون الشعر الصوفي ، فتأثروا ابلغ التأثر بالادب الفارسي ونظروا اليه نظرتهم الى مثال يحتذى. كما أخذ العثمانيون عن الإغريق والبلقانيين بعض نظمهم وتقاليدهم لكثرة مادخل من أهل هذه البلاد الأوروبية في الدين الاسلامي وفي خدمة الدولة. وهكذا اكتملت لدى الأتراك العثمانيين كل صفات القوة ، في حين أصبحت معظم الشعوب المعاصرة لهم خلواً من هذه الصفات .

أما من حيث نظام الحكم فقد بلغ درجة كبيرة من الإتقان والدقة في عصر الفاتح ، فقد كان هناك نظام وضع لاختيار من يرشحون لتولي أمور الدولة ، وهذا النظام يعنى أولاً بانتقائهم واختيارهم ثم تدريبهم وتثقيفهم ، ثم اختيار من تؤهله صفاته العقلية والجسدية ومواهبه للوظائف التي تتناسب وهذه المؤهلات. وقد شمل نظام الحكم هذا « الهيئة التنفيذية » ، وهذه على رأسها السلطان وتتكون من : البلاط ، والادارة ، والجيش المكون من فرسان ومشاة .

والسلطان هو رأس نظام الحكم كله ومركزه وقوته الدافعة،

وهو أداة توحيده وتسييره ، وهو صاحب التصرف المطلق في الأموال والأنفس،وهو الذي يصدر الاوامر ويمنح الرتب . لاتوجد سلطة أو قانون يحد من سلطته ولا رقيب عليه الا الشريعة الاسلامية، فأوامره في الأهمية بعد كتاب الله وسنة رسوله ، ومجموعة توقيعاته ومراسيمه هي قوانين الدولة بعد القانون الاسلامي .

ولذا فالسلطان العثماني بالرغم من اتساع سلطته لايجرؤ على مخالفة الشرع ، فهو يستفتي في أمور الدولة المهمة وفي الأمور التي لها صفة دينية ، ومن هنا نشأت وظيفة المفتي في الدولة العثمانية ، واصبحت هذه الوظيفة مهمة جداً ـ ولو ان ذلك الموظف الكبير كان كبقية الموظفين الآخرين قابلا للعزل ـ فلم يكن للسلطان مفر من ان يستشيره حتى يكون مطمئنا امام نفسه وأمام الرأي العام الاسلامي .

ومن هنا حرص السلطان العثماني حرصا شديدا على التطلع لكسب رضاء الله ، وعلى كسب رضا الرأي العام ، وحرص على احترام العرف الاسلامي السائد .

وكان الأتراك محبين لسلاطينهم ، مخلصين لهم ، متعلقين بهم الى درجة التقديس أحياناً ، فلم يفكر الاتراك لمدة سبعة قرون ـ هي عمر الدولة العثمانية ـ في تحويل السلطنة عن آل عثمان إلى عائلة أخرى .

وكان السلطان يعين في إدارة الدولة الوزراء ، وهم على عهد السلطان الفاتح اربعة ، رئيسهم الصدر الأعظم ، ويليهم رجال

الشرع ، وهم يعاونون السلطان في الأمور الدينية والقضاء . وبجانب السلطان مجلس الدولة وهو الديوان ، ويتكون من : الوزراء ، والقضاة ، وموظفي المالية الكبار ، ورياسة هذا المجلس للصدر الأعظم في حالة غياب السلطان .

وكان هناك جند الانكشارية الذين كانوا يختارون من أسرى الغلمان والشبان النصارى من سن الحادية عشرة الى سن العشرين ، ولم يكونوا يختارونهم حسب جنسيتهم أو عائلاتهم ، وانما كانوا ينظرون الى وجوههم وقوة أجسامهم وبراعة عقولهم ، وكان تدريبهم يتم بطريقة تامة في الدقة والنظام مع تلقينهم عقيدة وشرائع الدين الاسلامي الحنيف . وكان بعض هؤلاء الشبان الجدد من أولاد الارستقراطية النصرانية الذين كان السلطان ينتقي خيرتهم ليضمهم الى حكومته وجيشه ، او كانوا يشترون او يفرضون على أهل الذمة كضريبة لينخرطوا في سلك العثمانية ، ويتدربوا أحسن تدريب عسكري عرفه العالم في ذلك الوقت ، ولتفتح أمامهم سبل الحياة ويبتسم لهم المستقبل الزاهر . وكان جند الانكشارية مماليك السلطان بكل معنى الكلمة ، فمهما ارتفعوا الى مراكز عظيمة ، فهم دائما رهن اشارته وتحت تصرفه ، لايعتبرون حياتهم ملكا لهم ، فهم الذين اختارهم سيدهم السلطان ، وهو الذي رباهم ، وهو الذي علمهم ، وهو الذي رقاهم ، ومن ناحيتهم فقد كانوا مخلصين له ، يطيعونه طاعة عمياء ، ويدينون له بكل شيء .

وقد أوجد هذا النظام المحكم للدولة العثمانية خداما مخلصين للسلطان ، يتبعون أوامره ، ويلتفون حوله ، ويدافعون عنه ، ويحاربون في صفوفه . ولما كانوا قد تلقوا أحسن تدريب عرفه العالم في ذلك الوقت ، كانوا خيرة جنود العالم ، يخاف العدو سطوتهم ولا يقف أمامهم شيء . هذا اذا كانت شخصية سلطانهم وسيدهم والمدبر لشئونهم قوية محبوبة مهيبة الجانب . ولقد كان سلاطين الدولة العثمانية الى عهد السلطان محمد الفاتح من أقوى الشخصيات التي عرفها التاريخ في أي دولة ناشئة .

وكان يسود الجيش العثماني بكافة طوائفه وفرقه النظام والهدوء ، وكان يمتاز بالطاعة والخضوع لسيده وقائده ، والصبر على المكاره وتحمل الجوع والظمأ وقطع المسافات الطويلة ، كما كان يمتاز بخفته وسرعة حركاته ، وكان الحصان التركي أشبه ما يكون بالحصان العربي ، فهو خفيف وسريع وله سروج بسيطة غير مزركشة ، والجندي التركي لايرتدي سوى الملابس البسيطة التي تساعده على خفة الحركة ، وتقيه شدة الحرارة وقسوة البرد ، بينما كانت الجيوش الاوروبية في ذلك الوقت تمتاز ببطء حركاتها ، نظراً لثقل الملابس الحديدية التي يلبسها الدارعون ، ولثقل الحصان الاوروبي وبدانته .

وكان النظام العثماني الحاكم حتى زمن الفاتح لم يعرف الوراثة ، فكل الحقوق والامتيازات التي ينالها الافراد شخصية لا تورث من بعدهم ، فكان بذلك نظاما لايعترف بغير الكفاية

والجدارة الشخصية ، ومن هنا كان الباب مفتوحا امام الكفايات ، ووجدت الهمم ما يحفزهـا ويكافئها . ولم تتركز القوة او السلطة في يـد عائلة واحدة او عائلات قليلة كما هو الحـال في البـلاد الاوروبيـة ، حيث كانت ارستقراطية ثابتة متوارثة ، وانمـا الارستقراطيـة الموجودة هي ارستقراطيـة الكفايـة والجـدارة والعلم ، فكانت الدولة في عهدها الاول قوية يسيطر فيها السلاطين على كل شيء ، وحقوق المواطنين تتساوى امام السلطان الـذي كـان يرعى أفراد دولتـه بعنايته ، ويؤكد المساواة التي ينـادي بهـا الدين الاسلامي ، فلم يجد الاتراك غضاضة اذا رفع السلطان أضعفهم وأفقرهم الى أعلى مراتب الدولـة ، فهناك شعور عـام بالمساواة بين رعايا السلطان ، وكانت هذه المزايا التي سار علـى نهجهـا السلاطين العثمانيون الاوائل عاملا على توسيع رقعة البلاد ونشر الامن بين المواطنين ، وكانت قوة الدافع الديني تظهر بجلاء عندمـا يستنفر السلطان جنوده للحرب في دار الحرب ، فقـوة الدولة هي قوة الاسلام ، وفتوحات الدولة هي فتوحات اسلامية . ومن ناحية اخرى كانت قيمة الحروب تظهر في رفاهية السلطان وتابعيه من هيئة الحكومة لكثرة ماكانوا يحرزونه في تلك الحروب من غنائم واسلاب .

شخصية السلطان محمد الفاتح وتاريخ حياتـه

سنتحدث عن شخصية محمد الفاتح وهو في طور الشباب حتى فتحه مدينة القسطنطينية ، ذلك الفتح الذي جعل منه أقوى

شخصية تولت السلطنة العثمانية ، وأعظم معاصريه على وجه الاطلاق ، بل ومن أكبر شخصيات العالم . **ويعد السلطان محمد الفاتح من أعظم سلاطين آل عثمان ووصل الي درجة كان يعتبر معها محورا للسياسة الدولية في عهده ، وصاحب الكلمة الاولى في الشئون الدولية . وشملت علاقاته السياسية والحربية أوروبا وآسيا وأفريقيا ، ويعتبر بحق موطد السيادة العثمانية في أوروبا ، ومبدد الاحلاف الصليبية . وهو أول سلطان عثماني اشتهر عند الاوروبيين وكثر حديثهم عنه ، بل وأول حاكم اسلامي اطلق عليه أهل أوروبا لقب « السيد العظيم Grand Seigneur » وكان مجرد سماع اسمه يثير الرعب والهلع في قلوب اعدائه ، ولا أدل على ذلك من احتفال أوروبا بموته ، فقد اقامت البابوية في روما الحفلات والمهرجانات الصاخبة ابتهاجا بذلك ، وظلت الرهبة والرعب من هذا السلطان تخيم على أعدائه في أوروبا حقبة طويلة من الزمن ، كما ظلت ذكراه تلقى الرعب والفزع في قلوب أهلها الى عشرات من السنين بعد وفاته .**

ولد السلطان محمد الفاتح في ٢٦ من رجب سنة ٨٣٣ هجرية (٢٠ ابريل ١٤٢٩ م) وقضى أيام طفولته الاولى « بأدرنة » بجوار والده وتحت رعايته ، وقد اهتم والده بتنشئته وتربيته جسميا وعقليا ودينيا ، فمرنه على ركوب الخيل والرمي بالقوس والضرب بالسيف . وفي نفس الوقت أقام عليه معلما من خيرة اساتذة عصره ، وهو المنلا احمد بن اسماعيل الكوراني الذي ذكره

السيوطي على أنه اول معلم لمحمد الفاتح وقال : وكان عالما فقيها ، شهد له علماء عصره بالتفوق والاتقان ، وفاق أقرانه في المعقول والمنقول ، ومهر في النحو والمعاني والبيان ، وبرع في الفقه ، واشتهر بالفضيلة ... ثم اضاف ايضا : وكان الفاتح يسميه « أبا حنيفة زمانه » . وتشير الروايات التاريخية الى ان الملا الكوراني استطاع ان يحبب الامير محمداً في العلم ، وان يقبل بالفتى الامير على التعليم بفهم وجد ونشاط ، فما مضى غير قليل من الوقت حتى ختم القرآن الكريم . وكعادة الاتراك اقام والده السلطان احتفالا بهذه المناسبة ، وغمر مؤدبه ومعلمه الشيخ الكوراني بالعطايا والاموال الوفيرة .

واذا كان محمد الفاتح قد وجد له أبا من أعاظم سلاطين آل عثمان، فقد كانت أمه أيضا أميرة نصرانية كريمة. وكانت تقص عليه في طفولته وصباه حكاياتها وأساطير شعبها بخيال أوروبي نصراني ، فورث عنها بعض المزايا الكريمة وأفاد منها الفلسفة الإغريقية ، كما ورث عن أبيه الجلد والشجاعة وشدة المراس والصبر على المكاره وعدم اليأس . وأخذ عنه المعرفة بأمور الحرب والاتقان في وضع الخطط الحربية وحصار المدن وقيادات العمليات العسكرية وتشرب روح الدين الاسلامي ، ودرس تاريخ الاسلام المجيد من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى عصره ، بما يحويه من بطولات وسجايا ، فامتزجت فيه أحسن صفات الشرق الاسلامي والغرب النصراني في ذلك الوقت .

ومنذ صغره كان والده السلطان مراد الثاني يستصحبه معه بين حين وآخر الى بعض المعارك ، ليعتاد مشاهد الحرب والطعان ومناظر الجنود في تحركاتهم واستعداداتهم ونزالهم ، وليتعلم قيادة الجيش وفنون القتال عمليا ، حتى اذا ماولي السلطنة وخاض غمار المعارك خاضها عن دراية وخبرة .

وممن تتلمذ له محمد الفاتح ايضا الشيخ ابن التمجيد ، وكان الى جانب صلاحه وتقواه شاعرا حسن النظم بالعربية والفارسية ، ومنهم الشيخ خير الدين والشيخ سراج الدين الحلبي. والى جانب هؤلاء الشيوخ والفقهاء احضر السلطان مراد الى ابنه محمد معلمين آخرين في الرياضيات والجغرافية والفلك والتاريخ واللغات المختلفة . وقد حذق الفتى محمد من اللغات – فضلا عن لغته التركية – : العربية ، والفارسية ، واللاتينية ،والاغريقية ، والسلافية ، وبعضا من الايطالية . وكان بجانب إلمامه بهذه اللغات واسع الاطلاع على آدابها ويتذوق الجميل منها . وكان مما قصد اليه السلطان الفاتح من تعلم اللغات الاجنبية كاللاتينية والاغريقية – مثلا – ان يتمكن من الاتصال المباشر بشعوبه العديدة ذات الالسنة المختلفة ، يخاطبها بلغتها ، وليقف على أحوالها بنفسه، ويتحرى عدالة عماله .

وكان السلطان محمد الفاتح فوق ذلك مغرما بالفنون ، فكان يجيد التصوير والرسم والعزف على الآلات الموسيقية وينظم الشعر . وكان يكتب اشعاره تحت اسم « عوني » وذلك

على طريقة الإيرانيين في اختيار اسم شعري لهم . وهو يعد اول شاعر امبراطوري اتخذ لنفسه اسما مستعارا . وللفاتح ديوان شعر باللغة التركية معظمه في الغزل ، وقد طبع في تركيا بالحروف اللاتينية بعنوان « ديوان الفاتح » Fatih Divani وذلك في سنة ١٩٤٤ م .

نشأ السلطان الفاتح مهتما بدراسة التاريخ ، مغرما بقراءة سير العظماء والابطال ، فقرأ بامعان حياة القياصرة : أوغسطس ، وقسطنطين الاكبر ، وتيودوسيوس الاكبر ، وأعجب بشخصية الاسكندر المقدوني ايما اعجاب ، فقد لمح فيه صورة من نفسه ، رأى فيها قوة النفس ، وصحة العزم ، وسرعة التنفيذ بعد احكام الخطة وعدم التردد .

ولم يكن شغف الفاتح بالقراءة ونهمه بالمزيد من الاطلاع يقفان عند حد ، فكان يقرأ كل ما يرى فيه فائدة ومتعة لعقله وفكره او يكسبه تجارباً في الحياة ، فقرأ فيما قرأ كتابا في سيرة تيمورلنك التتري ، وهو الذي هزم جده بايزيد الاول وعرض الدولة العثمانية للفناء ، واخذ معه جد الفاتح « بايزيد » في قفص حديدي الى عاصمته في اواسط آسيا ، ولم ير غضاضة في ذلك او نيلا من مقامه ، ولم يستشعر حقداً على تيمور وكرها ، وذلك حتى يعرف عن خططه شيئا يستفيد منه .

وقد داب محمد الفاتح منذ ان كان اميرا على « مغنيسيا » في حياة والده على مراسلة العلماء والمثقفين من الامراء في فارس

والهند والتركستان ومصر وغيرها من البلاد الاسلامية . وبقي الفاتح على هذه السنة الحسنة حتى بعد توليه السلطنة ، وكان يرسل الى « خواجه جهان » ـ أحد كبار كتاب الهند ومتصوفيها ـ الف دوقية كل عام ، وكذلك الى المـلا عبد الرحمن الجامي من اعاظم علماء وشعراء ايران في ذلك العصر . وايضا كان يراسل من علماء مصر الشيخ محمد بن سليمان المحيوي استاذ السيوطي العالم المصري المعروف ، ذكر ذلك صراحة السيوطي في كتابه « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » . واشار الى ذلك بقوله : « وكان الفاتح يكاتبه ويهدي اليه الهدايا السنية » .

فلا عجب اذن من توافد العلماء والادباء والشعراء والفنانين من كل صوب الى عاصمة ملكه ، ولا عجب أن اجتمع في بلاطه من جميع هؤلاء العديد ، من ترك وفرس وعرب ولاتين .

عاش السلطان محمد الفاتح في جو ساد فيه العالم توتر وخشونة وقسوة ، وفي وقت اشتد فيه الحماس الديني والتعصب بين آسيا واوروبا ، بل بين الاسلام والنصرانية ، فلقد عاش الصراع بينهما مدة طويلة ، زادت فيها الاحقاد ، وهبطت الى اعماق النفوس، ففدت روح البغض وحب التشفي والانتقام ظاهرة ، ولذا ظهر في بعض تصرفات السلطان الفاتح الشدة والعنف ، وربما لم تكن هذه الشدة وذلك العنف في طبيعة السلطان محمد الفاتح ، فهو رجل سمت نفسه ونبل ذوقه ، واتسع أفقه ، ولكن العصر كان قاسيا وغير رحيم ، نتيجة الحماس الزائد لكلا الجانبين المتحاربين

المتصارعين ، حيث كان المسلمون يتحمسون للجهاد والتوسع والفتح ، ويزدادون زهوا وفخرا بما ينضم اليهم من أجناس اخرى تاركين عقائدهم وملوكهم ليدخلوا في زمرة المسلمين ، ويتحمس النصارى لدينهم ، ويناضلون نضال المستميت للدفاع عن بلادهم والوقوف في وجه التيار الاسلامي الصاعد الذي اجتاح ارضهم وكرامتهم . واشتد ذلك الصراع والنضال بين الفريقين الى درجة تلاشى معها العطف والعفو بين الفريقين .

وعلينا أن لانلوم السلطان الفاتح اذا اتهمه كثير من المؤرخين – لاسيما النصارى – بالقسوة وغلظة القلب والميل الى سفك الدماء ، وينبغي ان ننظر كيف كان اعداء السلطان الفاتح يعاملون الاسرى الاتراك الذين يقعون في أيديهم ، وما يلحقونه بهم من الوان التعذيب والتنكيل والتمثيل . وسنسرد قصصا وروايات ضمن كتابنا وفي ثنايا سطوره واحداثه عما فعله « هونياد » المجري « فارس الافلاق » كما يسميه الصليبيون ، وما فعله البنادقة وامبراطور القسطنطينية وغيرهم من امراء اوروبا من فظاعة واجرام بعيد كل البعد عن العاطفة الانسانية والشرف والامانة العسكرية ، فلم يكن الفاتح في شدته وقسوته على اعدائه سوى شخص يرد الشر بمثله ، مما تقتضيه الضرورات الحربية والسياسية .

كان السلطان محمد الفاتح قمحي اللون ، متوسط الطول ، متين العضلات ، كثير الثقة بنفسه ، ذا بصر ثاقب وذكاء حاد

ومقـدرة على تحمل المشـاق ، يحسن ركوب الخيل واستعمـال السلاح ، نـدر ان أدى صـلاة في غير مسجد جامع ، يريد بـذلك التقرب من الله سبحانـه ، وأن يوفـق للعمـل المفيد لشـعبه وللاسلام . كان محبا للتفوق ، ميالا للسيطرة طموحا ، سريعـا في فهم المواقف ، يحسن معالجة الامور ، كبير اليقظة بعيد النظر . وكان محبـا للعلماء ورجـال الادب ولا تخلو مائدته مـن بعضهم ، ويجد متعة في مناقشتهم وسماع نتاجهم ، واتخذ من ندمائه الادباء والشعراء والفلاسفة ورجال الفكر ، ومن لم يستطع الوصول الى بلاطـه كان يراسله ويقـدم اليه الهدايا والاموال في المنـاسبات . وفوق ذلك كان السلطان محمد الفاتح محبا ـ كما ذكرنا ـ للفنون ولا سيما الموسيقى والرسم ، ويتذوق الادب ويحفظ الشـعر الجميل وينشده ، ويهتم بدراسة الفلك . وكان يحسن استغلال دراساته وعلمه في تقويم نفسه واصلاح عقله والتأثير على المحيطين به .

وكـان السلطان محمـد الفاتح يعيش حياة بسيطة للغايـة لاتعدو القراءة والتدريب على فنون الحرب ثم الصيد . كان عدوا للترف ، عاداته غير معقدة ، ومائدته بسيطة كل البساطـة ، ولـم يكن لـه ندماء كما هو معروف وشائع عن هـذه الكلمة في العصر العباسي وغيره ، ولا محظيات بالمعنى الذي كان يفهمه سـلاطين وامراء واشراف ذلك العصر ، مسلمين ونصارى ، فعاش وحيـدا بعيدا عن الاختلاط المبتذل في جو هادىء وسط أسرته ورجال دولته ، او في جو صاخب كله نزال ونضال وحرب .

ولم يكن ممتازا في الناحيتين الثقافية والعسكرية فحسب ، بل كانت كفايته الادارية والقانونية عظيمة للغاية ، فقد أنشأ دولة عظيمة ، وبنى ملكا كبيرا ساعده على القضاء على دولة كانت في يوم من الايام لاتقهر . فهو بحق الذي وطد دعائم الملك العثماني ، واكسب العثمانيين النصر الخارجي ، وقنن القوانين ، وعمل على استقرار الحياة الداخلية ، وأشاع الامن والطمأنينة بين شعبه مسلمين ونصارى وغيرهم من أهل الديانات الاخرى

واذا كنا قد تحدثنا ــ في هذا الكتاب ــ عن بعض الشيء من اعمال السلطان محمد الفاتح في شبابه وبداية حياته ، والى ان اتم فتح القسطنطينية ، فان هذا الفتح العظيم لم يكن بمثابة النهاية لاعماله الجليلة ، بل كان بداية لها ومنطلقا لارساء قواعد دولته وتحطيم اعدائه . فقد كان سلطانا مسلما عظيما ، تؤكد جميع اعماله وفتوحاته انها كانت في سبيل نشر الاسلام والسمو بمركزه . وقد اعتبر نفسه مبعوثا برسالة هدفها ضم العالم الى دار الاسلام والقضاء على دار الحرب ، وتحطيم معاقل الشرك والضلال ، وحماية المسلمين من المغيرين المغامرين ، وساعده على ذلك قيادته لشعب واع وجيش متماسك ، درب على تحمل كل المشاق تدريبا جيدا اعطاه ميزة السبق على أعدائه المنقسمين على أنفسهم . وكان دوي المدافع التركية يسمع على الفرات والدانوب وشاطىء البانيا وسواحل ايطاليا في آن واحد ، حتى دانت له آسيا الصغرى وبلاد اليونان ومعظم شبه جزيرة البلقان ، واصبح البحر الاسود

بحيرة عثمانية بعد استيلائه على القرم وضمها الى الدولة العثمانية.
وكان الاتراك قد وضعوا اقدامهم على جانبي بحر « الادرياتيك » بعد استيلائهم على الجزائر « الإيونية وميناء أوترانتو » الايطالي وهددوا سلامة ايطاليا والبابوية واوروبا بأسرها .

وكان أعظم أعماله شأنا وقدرا القضاء على الدولة البيزنطية وفتح مدينة القسطنطينية ، بعد ان رأى بعيني رأسه تحديات الامبراطور قسطنطين لوالده ، وطيشه واعتداءاته المتكررة على بعض القرى التركية والرعايا العثمانيين ، فقد كانت المدينة بحق شوكة في حلق الدولة العثمانية لابد من ازالتها .

الفصل الثانى

حالة الدولة البيزنطية

قبل فتح القسطنطينية

- مدينة القسطنطينية .
- أسباب تدهور الامبراطورية البيزنطية .
- حالــة الدولة الداخليــة .
- الدولة البيزنطية والحروب الصليبية .
- الدولة البيزنطية والمسلمون .
- الامبراطور قسطنطين آخر من جلس على عرش بيزنطة .



حالة الدولة البيزنطية

قبل فتح القسطنطينية

مدينة القسطنطينية :

كانت القسطنطينية منذ قيامها تجذب انظار العالم القديم ، ليس فقط لانها خلفت مدينة روما كعاصمة للامبراطورية الرومانية العظيمة ، وانتزعت منها الشهرة العريضة التي كانت تتباهى بها ، ولكن لأنها غدت في نحو قرن من الزمان تضارع روما ، بل تفوقها في : جمال خططها ، وعظمة صروحها ، واتساع رقعتها ، ووفرة ثرائها ، وترف مجتمعها .

ولقيام هذه الحاضرة العظيمة قصة تتخذ أحيانا سمة التاريخ ، ويغمرها أحيانا لون الاسطورة ، حيث قامت عند انشائها فوق مواقع مدينة اقدم منها ببضعة قرون هي بيزنطية ، التي يختلط اسمها مع اسم قسطنطينية ، ويطلق في أحيان كثيرة على قسطنطينية ذاتها كعاصمة الدولة ، وتغلب صفتها على مرحلة كبيرة من تاريخ الدولة الرومانية الشرقية وتعرف باسم « الامبراطورية البيزنطية » .

ومنشأ بيزنطية كثير الغموض شديد الامتزاج بالاسطورة .

ويرجح المؤرخون قيام هذا الثغر على أرجح الاقوال الى سنة ٦٥٧ قبل الميلاد ، حيث نزلت في موقعه جماعة من المستعمرين اليونانيين بزعامة بحار يدعى « بيزاس Byzas » واستقرت به ، وسميت المستعمرة الجديدة بيزنطية نسبة الى مؤسسها بيزاس هذا . ولم تلبث أن ازدهرت ونمت واصبحت مرفأ بحريا ومركزا تجاريا كبيرا . ولم تكن المدينة الجديدة كبيرة الرقعة ولكنها كانت تمتاز بجمال الموقع وحصانته ، وميناؤها يتسع لرسو أكبر السفن في ذلك الوقت . وكانت بموقعها الفريد في مدخل البحر الاسود تشرف على تجارة هذا البحر القديم . كما وان خليجها الطويل الممتد شمالا أصبح يعرف « بالقرن الذهبي » لوفرة اسماكه وجودتها ، ولانه كان مرسى السفن المحملة بمختلف السلع والذخائر النفيسة من مختلف بلاد العالم القديم .

ولبثت بيزنطة ــ وهو تخفيف لكلمة بيزنطية والتي اشتهرت بها في العربية ــ فترة طويلة تتنازع سيادتها الجمهوريات اليونانية خاصة أثينا واسبرطة ، ثم استولت عليها مقدونية ايام الاسكندر الاكبر في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد ، ولما توفي الاسكندر المقدوني استطاعت بيزنطة أن تسترد استقلالها ، منتهزة تفتت الامبراطورية المقدونية وتقسيمها بين قواد الاسكندر الذي مات فجأة دون أن يرسي قواعد حكم ثابت الاركان ، ثم رأت مدينة بيزنطة أن تعقد حلفا مع روما ، ولكن الاخيرة ما لبث أن بسطت سلطانها عليها وجعلتها في عداد مستعمراتها . وفي سنة ١٩٦ قبل الميلاد ، استولى عليها الامبراطور سفيروس وقتل زعماءها والعديد

من اهلها ، وبدد تجارتها وهدم مبانيها وقوض اسوارها ، لانها كانت قد انضمت الى خصومه خلال الحرب الاهلية التي نشبت بينه وبين منافسه « بسينيوس نيجر » حاكم سورية .

وفي عهد الامبراطور « كلوديوس الثاني Claudiuis II » (٢٦٨ – ٢٧٠ م) » استطاع أهل بيزنطة أن يدفعوا عنها غزو القوط . وفي خلال الحرب التي نشبت عقب حكم الامبراطور « ديو كليشيان Dioclacian » ، بين قسطنطين الاكبر وخصومه ، لجأ « ليكلينوس » – احد أولئك الخصوم – الى بيزنطة ، فحاصره قسطنطين الاكبر حتى أرغمه على التسليم ، فدخل المدينة واخضعها لحكمه وكان ذلك في سنة ٣٢٤ ميلادية ، وقد دان للامبراطور قسطنطين الاكبر بذلك شرق الامبراطورية الرومانية وغربها معا .

وكان اباطرة روما منذ اوائل القرن الثالث الميلادي يفكرون في نقل عاصمة الامبراطورية من روما الى جهة اكثر امانا واستقراراً وهدوءاً ، نتيجة لتكرر هجمات أعداء الدولة على كافة اراضيها ، الامر الذي نتج عنه أن ساد العالم الروماني من الداخل تفكك عام وانهيار تام . فكان الفساد يهدد الدفاع العسكري والحياة الاجتماعية ، فقد هوجمت جميع الحدود وعاثت جموع البرابرة فساداً في الولايات : في غاله ، والراين ، والدانوب ، بينما كانت فرق الامبراطورية تواجه في الشرق تقدم الفرس الساسانيين . وكان خطر البرابرة قد بلغ اشده على الحدود الشمالية والشرقية ، فقضى « كلوديوس » (٢٦٨ – ٢٧٠ م)

نحبه وهو يحارب القوط ، وقضى « فاليريان » ما تبقى من حياته أسيراً في فارس ، وكانت روما ابعد من أن تنجد حدودها القاصية على الدانوب والفرات .

فلا عجب أن يفكر أباطرة الدولة الرومانية في نقل عاصمة الامبراطورية من رومة . وكان أول من أقدم على ذلك الامبراطور « ديو كليشيان » (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) فقرر الانتقال الى «نيكوميديا» الواقعة في ولاية « بتتيا » على شاطىء بحر مرمرة الآسيوي ، وأقام فيها حيناً . ولكن خلفه الامبراطور قسطنطين ـ الذي كان ايضا مقتنعا بأن روما لم تعد تصلح قاعدة للامبراطورية ، وان امن المملكة يدعو الى اختيار قاعدة اخرى ـ لم يرض بالعاصمة الجديدة فاختار بيزنطة لتكون قاعدة للامبراطورية ، تلك المدينة التي تقع على مشارف آسيا وأوروبا ، وتتحكم في تجارة البحر الاسود . وكان قسطنطين قد رأى خلال صراعه مع خصمه « ليكلينوس » ما كان عليه موقع بيزنطة من المنعة الطبيعية ، والمزايا البحرية والتجارية ، والموقع الرائع الجميل فانتهى به الامر الى اختيار هذا الموقعالفريد ليقيم عليه حاضرة الامبراطورية الجديدة .

ومنذ أن استولى قسطنطين على مدينة بيزنطة سنة ٣٢٤ م انصرف الى تحصينها ، وابتدأ في اقامة سورها ، ثم احتفل بوضع خطط العاصمة الرومانية الجديدة سنة ٣٢٨ م . وتذكر لنا الرواية المتعلقة بتخطيط المدينة ان قسطنطين كان يتقدم بنفسه موكب المحتفلين ، سائرا على قدميه ، وفي يده رمح يرسم به حدود

المدينة الجديدة ومواقع اسوارها وابراجها ، واختطها فوق موقع المدينة القديمة ، لكن رقعتها كانت تفوق رقعة بيزنطة القديمة بكثير ، فقد قامت بيزنطة فوق خمس تلال ، اما قسطنطينية فقامت على سبع تلال ، كان منها الخمسة التي قامت عليها بيزنطة من قبل .

وبذل قسطنطين جهداً عظيماً في تشييد عاصمته الجديدة وتجميلها ، وحمل اليها كثيراً من آثار رومة واثينا وصقلية وانطاكية وغيرها من مدن الامبراطورية الكبيرة ، وغطى تلالها بالابنية الفخمة. وفي اليوم الحادي عشر من مايو سنة ٣٣٠ م افتتحت المدينة الجديدة بصفة رسمية واصبحت عاصمة للامبراطورية الرومانية ، وسميت « رومة الجديدة » لكي يسبغ عليها الجلال السياسي المنشود ، وسميت في نفس الوقت قسطنطينية تخليدا لاسم مؤسسها ، وكذلك استمر اسم بيزنطة القديم يطلق عليها ، وتوّج الامبراطور قسطنطين في ميدان « الهيبدروم » . ولا يزال هذا الميدان الشهير قائما الى اليوم يذكرنا بما شهده من تعاقب الاحداث والدهور .

واستغرقت احتفالات التدشين أربعين يوما ، امتزجت بالطقوس الدينية النصرانية ولأول مرة في تاريخ احتفالات أباطرة روما ، وذلك لأن الامبراطور قسطنطين كان أول قيصر روماني اعتنق النصرانية فلقد اعتنقها في سنة ٣١٢ م . واقام الامبراطور مع رجال بلاطه ومجلس دولته وهيئة الحكومة المركزية في العاصمة الجديدة التي حملت اسمه ، كما توجه أرباب الثراء من جميع

أنحاء العالم اليها تاركين روما وباقي المدن القديمة ، عندما علموا بهذه المشاريع الواسعة ، مصطحبين معهم ذويهم وبواخر محملة بأمتعتهم المنزلية ، وسرعان ما بني بها أربعمائة قصر وعدد من الحمامات العامة بلغت المائة والخمسين ، وزاد عدد سكانها زيادة كبيرة حتى فاقت سكان روما نفسها .

وكانت القسطنطينية بطبيعة موقعها الجغرافي ، في ذلك المكان الذي تلتقى فيه آسيا وأوروبا مركزاً طبيعياً يمكن ان يلتف حوله العالم الشرقي ، لذلك كانت تختلف اختلافا بيّنا عن العاصمة القديمة . وكانت تجمع في شخصها الآمال الجديدة والسّمات الجديدة للعالم الشرقي ، وذلك بفضل هذا اللون الهليني الذي كان يغلب عليها ، حيث ان غالبية سكانها كانوا من أصل يوناني ، وبفضل الشخصية الجديدة التي خلعتها عليها النصرانية .

ولم يبق بمدينة القسطنطينية من آثار عصر قسطنين الاكبر صروح وآثار احتفظت بأصولها القديمة ، سوى كنيسة القديسة إيرين الواقعة في المدينة على مقربة من البحر ، وعمود الحية القائم في ميدان الهيپدروم ــ يسمى حاليا « آت ميداني » : أي ميدان الخيل ــ وهو العمود الذي احضره قسطنطين من معبد « دلفي » فيما احضره من الآثار اليونانية القديمة ، وكان مثلث الراس وقد حطمت رؤوسه الثلاثة فيما بعد ، ولكنه بقى في مكانه القديم .

ونضيف الى ما سبق ذكره انه كان لقسطنطين في الحقيقة سبب آخر لتحوله الى القسطنطينية فقد شيدت هذه المدينة

لتكون مدينة نصرانية الصبغة ، بينما ظلت روما حصنا للديانة القديمة الى وقت طويل . وبفضل الشخصية الجديدة الوقورة التي خلعتها عليها النصرانية فقد أخذت اطراف الجزء الشرقي من الدولة تتجه اليها وتتجمع حولها ، وكذلك اتجهت قلوب النصارى من رعايا الدولة الرومانية نحو العاصمة الجديدة، وتطلعوا اليها لتنقذهم وتحميهم من حكام روما الوثنيين ، الذين كانوا يناصبون النصرانية العداء ويشتتون شمل معتنقيها . وانتهى الامر بأن نشأ في هذا الجزء الشرقي وعي بشخصية مستقلة ، مما حدا بالامبراطور « تيودوسيوس الكبير » (٣٧٩ — ٣٩٥ م) الى تقسيم الامبراطورية بين ولديه قبل وفاته الى قسمين هما :

الامبراطورية الرومانية الغربية وعاصمتها روما .

والامبراطورية الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية ، لكي يتفرغ كل منهما للدفاع عن امبراطوريته . وقد تم ذلك في سنة ٣٩٥ ميلادية .

ولم تعش الامبراطورية الرومانية الغربية طويلا بعد هذا التقسيم ، فقد توالت عليها هجمات البرابرة حتى سقطت روما في أيديهم عام ٤٧٦ م وافلت شمسها . اما الامبراطورية الرومانية الشرقية والتي عرفت ايضا بالامبراطورية البيزنطية فقد ظلت قائمة بعد ذلك التقسيم اكثر من عشرة قرون بفضل مناعة عاصمتها القسطنطينية .

أسباب تدهور الامبراطورية البيزنطية

ظلت مدينة القسطنطينية ألفا ومائة عام عاصمة للامبراطورية الرومانية الشرقية وخط دفاع أول تجاه الشعوب غير النصرانية ، وخلال هذه القرون الاحدى عشرة ظهرت احدى عشرة سلالة حكمت الامبراطورية ، كان بعضها حكيما مصلحا وبعضها الآخر مفسداً فاسقاً ، الا أن ضعف الحكام وفسادهم وغرورهم بصفة عامة ، وظهور العرب المسلمين على مسرح السياسة الدولية عجّل بفناء هذه الدولة .

وكانت الامبراطورية البيزنطية قد بلغت ذروة مجدها وعظمتها في عهد الامبراطور « جستنيان » وطمحت نفسه الى السيادة على العالم ، فاشتبك في حروب متواصلة مع الفرس في آسيا وضد القبائل المتبربرة في أوروبا ، وامتدت فتوحات الامبراطور جستنيان الى شمال افريقيا ، وأقام الكثير من المنشآت والقصور الفخمة والكنائس الرائعة ، والتي منها كنيسة « سانت صوفيا » التي لا تزال قبتها الرائعة مهيمنة على المدينة ، وهي قبة ضخمة ترتفع عن الارض مائة وثمانين قدما ، وكانت مزينة بالفسيفساء الرائعة ، وبصور قيمة تروي قصة النصرانية كلها بألوان شبه ذهبية مشعة ، وكانت الاقواس المتعددة في الممرات تقوم على أعمدة من الرخام الابيض ، أما المذابح فكانت تسطع ببريق الذهب والفضة . وفي عهد الامبراطور « جستنيان » أيضا أصبحت اليونانية لغة الامبراطورية واهملت اللاتينية ، واصبح للمدينة طابع خاص

في الفن والبناء والتقاليد وعادات أهلها ، وأصبح هذا الطراز من الفن والطباع وحتى أسلوب الملبس يعرف باسم الطراز البيزنطي ، لتميّزه عن الطابع اليوناني القديم ولما به من سمات خاصة وعلامات مميـــزة .

وتتلخص أحوال الامبراطورية البيزنطية العامة في أنها تمتعت خلال القرن السادس الميلادي ــ وهو القرن السابق لقرن الفتوح الاسلامية ــ بالقوة والقدرة الاقتصادية ، فقد ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة في ولاياتها الكبرى بصفة خاصة ، وهـــي : آسيا الصغرى ، وسوريا ، ومصر . ولكل من هذه الولايات قاعدة عالمية الشهرة ، هي : القسطنطينية ، وانطاكية ، والاسكندرية . وكانت هذه القواعد مراكز صناعية كبـــرى لعالم البحـــر الابيض المتوسط كله ، وصدّرت اليه منتجاتها من المنسوجات والبردي والزجاج والاواني المعدنية ، كذلك كانت تصدّر ما يرد اليها براً وبحـــراً من بلاد الصين وجزر الهند الشرقية وسواحل افريقيـــة الشرقية ، فقد كانت مصر نهاية طريق البحر الاحمر ، وسوريا نهاية طريق آسيا البري وروافده من شبه الجزيرة العربية وبلاد فارس، كذلك كانت القسطنطينية نهاية طريق أرمينية والبحر الاسود .

ومن سياسات الامبراطورية البيزنطية واتجاهات أباطرتها أنها لم تغفل العناية بالقوات البحرية ، ولا سيما في القرن الذهبي المشهور ، بل ان هذه العناية هي التي شكلت نظامها ، منذ عهـــد الامبراطور « جستنيان Justinian » (ت ٥٦٥ م) وهرقـــل

(ت ٦٤١ م) وعهود ما جاء بعدهما . واتجهت همّة الاباطرة البزنطيين الى احتلال الثغور البحرية والسواحل ، وتجنب التوغل في الاراضي الداخلية ، ومن ثم قلّت حاجتهم الى الجيوش البرية الضخمة التي تكلف الشيء الكثير .

ومما ساعد على تفوق بيزنطة البحري في تلك الفترة ، انه لم يكن لها منافس ، وهي في ذلك تشبه تفوق بريطانيا البحري في مطلع العصور الحديثة ، فكان لبيزنطة بعض الساحل الجنوبي لاسبانيا ، والساحل الافريقي الشمالي ، وجزر سردينيا وكورسيكا وصقلية وكريت وقبرص ، ومدينة الاسكندرية ، فضلا عن جنوه ونابولي والدردنيل والقرم . ولم تقتصر بيزنطة على البحر المتوسط بل تجاوزته الى غيره من البحار والاقطار ، وكان هذا التجاوز والتفوق هو سر المنافسة الحادة بين الروم والفرس وتأصل العداوة بين الامبراطوريتين الكبيرتين في ذلك الوقت .

وبتوالي السنين اصبحت القسطنطينية العاصمة العظمى للعالم أجمع ، بفضل ثرائها وكنائسها وقصور أباطرتها ، وعاش الادب اليوناني القديم حيا في مكتباتها ، وفي ذلك المثلث الجبلي ــ الذي ينديه ماء البحر والرياح ــ نشأ جيل من البشرية عاشت معهم المدنية وعاشوا هم معها ، وكان الاباطرة ــ بصفة عامة ــ طغاة ، حتى ان أفاضلهم كانوا قساة ، ولكن الناس تجملوا بالصبر والتحمل . وكما تنبأ قسطنطين الاكبر عند بنائه المدينة ، فقد صمدت في موقعها الاستراتيجي ، وتمكنت من صد أعدائها من

كل جانب ، فردت حملة اثر اخرى من التتار والبلغار والهون والقوط والسلاف، وتميز شعبها بأنه محارب جريء مظفر لايقهر.

وبينما كانت القسطنطينية تزداد ثروة وقوة اجتاح البربر أوروبا ، واستولوا على روما ، وطفت حالة من الفوضى والجهل والهمجية على ما كان يسمى بالامبراطورية الرومانية ، وما أن توفي جستنيان حتى كانت الدولة كالطير الذبيح لاينهض الا ليسقط من جديد ، فقد ظلت الدولة البيزنطية بعد ذلك غارقة في الفوضى والاضطراب حتى قيّض لها رجل ، قوي حازم ، هو « هرقل » (٦١٠ ـ ٦٤١ م) فأنقذها ثانية مما كانت فيه ، واسترد من الفرس البلاد التي كانوا قد استولوا عليها من قبل وهي : مصر والشام وآسيا الصغرى . ولم يطل الامر كثيرا فقد ظهر الإسلام ـ ذلك التيار الجارف الذي اكتسح كل ما صادفه ، وغلب كل شيء اعترضه ، وطما على السهل والجبل ـ فغزا العرب المسلمون أملاك الفرس والروم في آن واحد ، واستولوا من الدولة البيزنطية على مصر والشام وشمال افريقيا ، وحرمت هذه الدولة من مناطق واسعة شاسعة كانت تمدها بالمال والغلال والعتاد والرجال .

ولم يكن العرب المسلمون وحدهم هم السبب في انهيار الدولة البيزنطية ، فقد كان السلاف والبلغار قد تمكنوا أيضا من احتلال البلقان ، ورسخت اقدامهم فيه ، وشرعوا يغزون الدولة البيزنطية حتى بلغت هجماتهم أطراف القسطنطينية نفسها .

وكان الاجهاد العظيم الذي الم بالدولة البيزنطية اثر حروبها

مع الدولة الفارسية ـ رغم تفوقها البحري ـ من أسباب سرعة الفتح العظيم والنصر المبين الذي احرزه المسلمون ، ويضاف اليه ما لمسه سكان البلاد المفتوحة من خصائص الاسلام ، وطبيعة تعاليمه القائمة على التسامح ، وهو أمر لم تألفه الشعوب الواقعة تحت نير الاباطرة البيزنطيين ، وفي فترة كانت مليئة بالفتن المذهبية والصراع الديني واستعباد الناس ، وهذا ما حمل السكان المحليين ـ وهم شعوب عريقة لها تاريخها وماضيها وحضارتها وتراثها الانساني ـ على الترحيب بالفتح الاسلامي . واصدق دليل على ذلك ان مصير الشام تقرر في معركة واحدة هي وقعة اليرموك سنة ١٥ هجري (٦٣٦ م) ، كما تقرر مصير مصر في وقعة واحدة هي وقعة حصن « بابليون » سنة ٢٠ هجرية (٦٤١ م) .

ولم تكن الناحية المالية في الدولة البيزنطية حسنة بعد انكماشها وهزائمها المتوالية ، فقد ابتليت بيزنطة أيضا بإفلاس عام ، نتج عنه بيع السفن الحربية وتقليل الجيش لخفض النفقات ، كما نتج عن ذلك أيضا بيع مدن بيزنطية كاملة للتجار البنادقة والجنويين ، فقد بيعت « سالونيك » ثاني بلد في الامبراطورية في عام ١٤٢٣ م للبنادقة بمبلغ خمسين الف دوقية .

حالة الدولة الداخلية

كانت الدولة البيزنطية في أخريات أيامها مباءة للمكائد والدسائس والمؤامرات ، فقد كان البلاط البيزنطي لا يحوي الا الطامحين والطامعين وأبناء الطبقات الارستقراطية التي تنظر الى

نفسها اكثر ممّا تنظر الى خدمة الشعب والدولة ، فسبّب ذلك فساد الحكم والادارة ، وكان نتيجة لذلك انتشار الفوضى والاهمال بين موظفي الدولة .

ومن مظاهر أدواء بيزنطة أيضا ولعها بمظاهر الأبهة والعظمة ، وقد ظلت حريصة على ذلك حتى في أيام ضعفها وافلاسها ، ولجأت لإرضاء هذه النزعة الى وسائل سخيفة شاذة وأهملت الدولة الأسطول منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي بحجة أنه يحتاج أموالا كثيرة وهي تنفق في غير جدوى ، وقلت عدد وحدات الجيش ونقصت ميزانيته ، وبدأ افلاس الدولة يظهر بوضوح ، وتكشف لأعين الناس في أزرى صوره وافضحها ، فعندما احتفل بزفاف الامبراطور « يوحنا باليولوجوس الخامس » سنة ١٣٤٧ م لم يكن بين الاواني شيء من الذهب والفضة ، بل كانت كلها من الفخار والقصدير ، أما الملابس والتيجان الامبراطورية فلم تزين باللآلىء والجواهر الاصلية كما كان من قبل ، بل زخرفت وبرقشت بحبات من الخرز واللآلىء الصناعية ، فاضطر أواخر الاباطرة من آل باليولوجوس أمام الفقر الشديد ـ بعد ان باعوا كل ما يملكون من متاع وجواهر ـ أن يبيعوا قطعا من اراضي دولتهم في مقابل بضعة آلاف من الدوقيات ، وانحدرت الدولة دركة أخرى في الانحلال والعوز فصارت تبيع التجار مدنا برمتها ، كما حدث في عام ١٤٢٣ م عندما بيعت مدينة « سالونيك » كما ذكرنا سالفا .

وكان من جراء الاضطراب الذي ساد الدولة ، وفساد الحكم والادارة فيها ، وانتشار الفوضى والاهمال ، أن توالت عليها

الأوبئة والطواعين ، فهدت كيانها ،وقضت على الالوف من سكانها، وكان أشدها فتكاً ذلك الذي اجتاح أوروبا الشرقية سنة ١٣٤٧ م وعرف بالموت الأسود ، ثم الوباء الذي اجتاح القسطنطينية سنة ١٤٣١ م فأتى على عدد كبير من سكانها ، حتى صارت الجثث في المنازل لا تجد من يدفنها .

ولم يكن الفساد والاهمال واللامبالاة الطامة الكبرى في الامبراطورية البيزنطية ، بل كانت المسألة الدينية والخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية من المشكلات الهامة أيضا ، والتي ادت في النهاية الى حقد دفين بين الامتين الرومية واللاتينية ، ولم تكن أسباب الخلاف هذا الا عدة مسائل تتعلق بالعقيدة وبعض الطقوس الدينية . ويعتبر المؤرخون أن بيزنطة قد شقيت بالخلافات الدينية شقاءً كبيراً ، بل يعتبرون الصراع المذهبي هو المشكلة المزمنة التي لازمت الامبراطورية البيزنطية طوال تاريخها ، وحتى آخر لحظة من حياتها . كما أن من أهم الاسباب التي زادت الخلافات حدة ذلك النزاع الذي نشب بين بابا روما وبطريرك القسطنطينية على الرئاسة والصدارة ، فقد كان البطريرك يعد نفسه نداً للبابا لا نائباً له ، بينما كان البابا يعتبره دونه في المنزلة والدرجة . وقد احتج البابا « ليون الاكبر » ذات مرة على احدى المجامع لكونها جعلت لأسقف القسطنطينية نفس المنزلة والمكانة التي لبابا روما . وعندما أصدر البابا « نقولا الاول » في القرن التاسع الميلادي قرار حرمان على بطريرك القسطنطينية قابله هذا بالمثل واصدر ضده قرار حرمان أيضا .

ولم يكن النزاع وقفا على رجال الدين وحدهم ، فان الشعب الرومي نفسه كان شديد التعصب للمذهب الارثوذكسي، ووجد هذا الشعب في مسائل الخلاف بين الكنيستين الشرقيةوالغربية مجالا واسعا ومادة دسمة لاشباع هذا النهم الفريد . وكان أهل اوروبا بدروهم يعتبرون الاروام خوارج مارقين يجب قتالهم كالمسلمين سواء بسواء ، بل صرح بعضهم انه يجب قتال الروم واستئصال شأفتهم قبل قتال المسلمين . اما في بيزنطة نفسها فقد انقلب الشعور الديني الى شعور وطني ، واصبح في نظرهم مجرد الميل الى الغرب خيانة وطنية ، غير ان مواضع الخلاف لم تقتصر على تلك المسائل الدينية فحسب ، بل تعدتها الى مسائل اخرى ، جذورها الاطماع السياسية والدينية القديمة ، فضلاً عن المزاج القومي والخصائص الخلقية التي ساعدت على استفحال الخلاف واحباط جميع المساعي المبذولة لاصلاح ذات البين .

والى جانب التعصب الديني ، كان أهل بيزنطة شديدي الإيمان بالخرافات والاساطير ، وكانوا بجميع طبقاتهم مولعين بالجدل والنقاش في المسائل الدينية ، واصبح ذلك فيهم غريزة وسليقة لا تكاد تفارقهم . وكان الروم يحرصون كل الحرص على حضور المجالس التي يعقدها رجال الدين للمناظرة والمجادلة ويجدون في ذلك متعة وسلوى ، وانصرف الناس الى هذا الجدل الديني العقيم لا يكاد يصرفهم عنه شيء ، فالهاهم عن النظر في شئون بلادهم وما كان يحدق بها من أخطار بعيدة أو قريبة .

اما الغرب اللاتيني فقد بدت الامبراطورية البيزنطية في نظره ذات صفتين متباينتين : فهي دولة نصرانية تجاور أعداءً غير نصارى يحق على اللاتين مساعدتها ، وهي كذلك دولة ملوثة بالهرطقة ، متحدية روما أشد التحدي ، معادية لكل محاولة تبشيرية كاثوليكية في الجنوب الشرقي من أوروبا .

الدولة البيزنطية والحروب الصليبية

لم تكن الحروب الصليبية كما يتبادر الى الذهن خيراً وبركة على الدولة البيزنطية ، فانها زادت من هوة الخلاف بين الروم واللاتين ، وأججت العداء المرّ بين العالم النصراني شرقية وغربية ، وتبلورت أفكار اللاتين في خلع الامبراطور البيزنطي وفتح القسطنطينية واخضاع الامبراطورية الرومانية الشرقية لحكمهم بالقوة . ذلك ما قاله « روبرت جويسكار » وابنه « بوهمند » وقريباهما « ريتشارد الثاني ووليم الثاني » ملوك صقلية . وهو أيضا قول تلك الزمرة من المغامرين الشماليين الذين اخرجوا البيزنطيين من جنوب ايطاليا ، وعاشوا حياتهم في خشية ورعب وهلع ، أن تنتقم الدولة البيزنطية منهم انتقاما شافيا ، فرأوا أن يعاجلوها قبل أن تفلت منهم الفرصة ، وصادف ذلك هوى في نفوس الكثيرين لا سيما تجار البندقية الذين وجدوا في الدولة البيزنطية مجالاً واسعاً للتجارة والنهب ، فضلاً عن غلاة السياسيين ، بل حدث أكثر من مرة أن البابوية نفسها أبدت استعدادها للمشاركة في هدم الامبراطورية النصرانية في الشرق .

ولسنا بحاجة الى المبالغة في هول النتائج التي ترتبت على تلك العداوة التي نشبت بين شطري العالم النصراني ، فإن فشل الصليبيين في استرجاع الشرق الاسلامي من المسلمين يعود الى اسباب عديدة ، من بينها تلك العداوة وما امتزجت به من الشعوبية والخلاف المذهبي ، وما داخلها من الطموح السياسي والمنفعة المادية ، حتى انتهى الامر بتحول الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة عن غرضها الصليبي الى هدم الامبراطورية البيزنطية ، وتم لها فتح القسطنطينية ونهبها في سنة ١٢٠٤ م ، وتمزيق أكبر الدول الاوروبية واغناها حضارة في العصور الوسطى . وقد استطاع البيزنطيون استعادة عاصمتهم سنة ١٢٦١ م بعد نصف قرن تقريبا من الحكم اللاتيني . واذا لم يكن بينهم وبين اللاتينيين قبل تلك الحملة سوى أن المودة كانت مفقودة ، فليس من العسير ان نتصور ما تأجج في نفوسهم بعدها من بغض شديد لأولئك الذين اذاقوهم مرير الذلة ، واستعمروا وطنهم وديارهم عشرات السنين .

واستطاع الامبراطور ميخائيل الثامن استعادة القسطنطينية، لكن المدينة كانت في حالة سيئة من الضعف والانحلال ، فاصطدم الامبراطور بعداوة الغرب ، وأخذ البابا يناصر الامراء الغربيين على اعادة الاستيلاء على الامبراطورية الرومانيةالمنحلة ، واعتبر البابا ما أقدم عليه الامبراطور ميخائيل الثامن بمثابة خروج على الكنيسة النصرانية ، فلم يجد الامبراطور ميخائيل الثامن بدأ من مصالحة البابا ، فعرض عليه توحيد الكنيستين ، واجبر الامبراطور شعبه

الموتور على هذا التوحيد ، وأتبع ذلك تشريد رجال الدين المخالفين له ، ففر معظمهم . كذلك اضطر البطريرك أن يعقد مجلساً دينياً في القسطنطينية عام ١٢٧٧ م وأصدر قرار حرمان الكنيسة الشرقية للامبراطور ميخائيل الثامن بطل التحرير ، ولم يسلم هذا التعيس بدوره من الجانب الآخر ، فقد توفي بابا روما المتسامح معه وحل محله بابا جديد كان اشد كراهية وبغضا للروم ، واتهم الامبراطور بالنفاق والمداهنة وأصدر ضده قرار حرمان . وهكذا مات الامبراطور ميخائيل الثامن الذي حاول التوفيق بين الكنيستين بعد أن صدر ضده قرار حرمان من كل من : بابا روما ، وبطريرك القسطنطينية ، وبعد أن نال غضب الروم واللاتين جميعا .

لذا راحت المحاولات التي بذلت لتوحيد القوى النصرانية هباءً ، ولم تنجح في الوقوف في وجه الخطر العثماني الزاحف ، ورفض رهبان القسطنطينية وقساوستها ان يقبلوا ماجادت به قرائح رجال الدين من الاقتراحات في المجمع الكنسي بمدينة «ليون» سنة ١٢٧٤ م ، أو في المجمع الكنسي في مدينة « ترارا » سنة ١٤٣٨ م . ولم يكن من سبيل الى التغلب على تلك المعارضة العنيفة إلا أن ينال اللاتينيون انتصارات حربية كبيرة على العثمانيين ، لكن تلك الانتصارات لم تتيسر وقتذاك ، فبقيت الهوة التي حفرتها منافسات البابوية والبطريركية من قبل فاغرة فاها ، ومهّد انقسام العالم النصراني على نفسه للعثمانيين أن يثبتوا أقدامهم في أرض أوروبا ، فلم يلبثوا أن زحفوا بجيوشهم نحو الدانوب ، وفتحوا بلاد اليونان وجزائرها ، وحققوا منتهى آمالهم السياسية

والعسكرية حين استولوا سنة ١٤٥٣ م على مدينة القسطنطينية نفسهـــا .

الدولـــة البيزنطية والمسلمون

اذا كانت دولة الروم لم تعِر الحركة الاسلامية التي أخذت تصوغ العرب داخل الجزيرة العربية في قالب جديد أي اهتمـــام ، فإن أصداء الحوادث الكبرى التي قامت بها تلك الدولة المسلمة الفتية تردد صداها في كافة بلاد العرب . وجعلت هذه الدولة ــ بفضل جريان الطريق التجاري من اليمن الى فلسطين وسورية ومصر ــ تقف على اخبار دولة الروم وما يضطرب به جوفها من صخـــب مذهبي عنيف وتتطلع الى اجتياحها .

ويعتبر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أول قائد رسم بنفسه الخطة التمهيدية لاستيلاء الجيوش العربية على بلاد الشام وضمها الى دولة الاسلام ، ذلك ان النبي عليه السلام لم يقف ساكنا ازاء استشهاد رسوله الحارث بين عمير الازدي الذي أرسله الى صاحب بصرى ليعرض عليه دعوة الاسلام ، فعرض له في مؤتة شرحبيل بن عمرو الغساني أمير البلقاء فقتله ، ففي سنة ٨ هـ ٦٢٩ م ارسل النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة على راس حملة قوامها ثلاثة آلاف رجل الى الجهات الشمالية الغربية من بلاد العرب ، يدفعه الى ذلك امور ، منها واجب الاخذ بثأر الحارث ابن عمير . وهناك عند « مؤتة » ــ الواقعة على حدود البلقاء الـــى

الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت ـ التقى المسلمون بقوات الروم ، ولم يحرزوا انتصاراً باهرا ، وتمكن الروم من حماية حدود بلاد الشام . وبينما رأى الروم في تلك الحملة اغارة من الاغارات التي اعتاد البدو شنها للسلب والنهب ، الا أن حملة زيد هـذه كانت في الحقيقة اغارة من نوع جديد لم تقدّر دولة الروم أهميتها ، فهي اغارة منظمة ، ترمي الى اهداف كبيرة ، وقد لعب استشهاد قادتها الثلاث ـ الذين عينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ دورا كبيرا في تطلع المسلمين الى تلك البلاد ، التي هي درة الدولة البيزنطية . ولم تمض فترة يسيرة حتى سقطت الشام وتلتها مصر في أيدي العرب ، وأصبحتا جزءا من الدولة الاسلامية الناشئة . وبذلك أصبح المسلمون سادة مصر والشام ، واصبحوا يتطلعون الى البحر الابيض المتوسط الذي امتدت سواحل ممتلكاتهم عليه ، وأخذوا يعملون على دفع غائلة الروم واقصاء سلطانهم عنه ، ولم يلبث المسلمون ان أنشأوا السفن الحربية ، وغدت أساطيلهم تمخر عباب المياه ، وتصدّ أساطيل الروم ، وتوقع بها الهزائم قبل أن تقترب من الشواطىء الاسلامية .

والمعروف أن العرب المسلمين قد عمدوا الى اتخاذ قواعد حكمهم بعيداً عن ساحل البحر ، كما في دمشق والفسطاط ، على حين اتخذها من سبقهم من اليونان والرومان على الساحل ، كما في أنطاكية والاسكندرية ، الا ان الضرورة قد أجبرت العرب على الاهتمام بالبحر ، ففضلا عن الاعتبارات العسكرية ، فهناك أهمية البحر

كطريق هام للتجارة العالمية . وزاد في تنبيه العرب الى أهمية البحر ، تلك الحملة البحرية التي أرسلها البيزنطيون عام ٢٥ هجرية (٦٤٥ م) عقب فتح مصر ، واستولت على الاسكندرية ، ولم تطرد منها إلاّ بعد جهد عنيف .

ويعتبر معاوية بن أبي سفيان أول من نظم أسطولاً في الاسلام، وأول من أرسل حملة عربية اسلامية للغزو في البحر المتوسط. وكان معاوية قد استأذن الخليفة عمر في الغزو في البحر ، فأذن له واشترط عليه أن لا يجبر أحداً من جند المسلمين على ركوب البحر والغزو فيه .

وهكذا قامت البحرية الاسلامية ، وتشجع المسلمون على ركوب البحر وارتياده ، ولا سيما بعد انتصارهم على قبرص عام ٢٨ هجرية (٦٤٨ م) ، وانتصارهم الساحق على البحرية البيزنطية عام ٣١ هجرية (٦٥١ م) في الوقعة المعروفة باسم «ذات الصواري» وكانت موقعة هامة ظهر للمسلمين بعدها تفوقهم البحري ، وتجرؤا على أعدائهم في البحر ، وزال خوفهم من ركوبه ، فهم قد انتصروا في تلك المعركة على صاحبة أقوى قوة بحرية معاصرة ، وكان الاسطول الاسلامي يتكون من مائتي سفينة ، وعليه بحارة من المصريين والسوريين ، وتراوحت سفن الاسطول البيزنطي بين ٧٠٠ والف سفينة بين كبيرة وصغيرة . ويقول مؤرخان جليلان وهما الطبري وابن الاثير : ان الروم قد خرجوا في جمع لم تجمع الروم مثله منذ كان الاسلام . والتقى الاسطولان عند موضع « فيونكس

Phoenix « على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى قرب شواطىء « ليكيا » ويقود الاسطول البيزنطي الامبراطور « قنسطانز الثاني Constans 11 » (٦٤١ – ٦٦٨ م) ، وعلى الاسطول الاسلامي معاوية بن ابي سفيان يقود أهل الشام، وعبدالله بن سعد ابن ابي سرح والي مصر ، واليه أمر البحرية الاسلامية .

وقبل بدء المعركة بات المسلمون يقرأون القرآن ، بينما اخذ الروم يضربون النواقيس . وربط المسلمون سفنهم بعضها الى بعض بسلاسل قوية ، وذلك لمهارتهم في الحروب البرية ، مما استحال على عدوهم أن يخترق صفوفهم ، وانتهت المعركة بتدمير الاسطول البيزنطي ، وهرب الامبراطور « قنسطانز الثاني » الى صقلية ، حيث عنفه أهلها لخيبته . ومما قالوه له : **((أهلكت النصرانية وأفنيت رجالها ، لو أتانا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم))** ثم ادخلوه الحمام وقتلوه . وتعتبر تلك الوقعة البحرية التي يسميها المؤرخون العرب « معركة ذات الصواري » – لكثرة السفن التي اشتبكت في القتال – حداً فاصلاً في سياسة الروم إزاء المسلمين ، فقد تيقن الاباطرة في القسطنطينية بعدها أن اعداد حملات برية او بحرية لاسترداد مصر او الشام مجهود فاشل ضائع، وانه من الأجدى تنظيم الدولة وتخطيط سياستها على أساس الامر الواقع ، للاحتفاظ بالبقية الباقية من ممتلكاتها ، وتقوية اداتها الحربية لصد هجوم المسلمين الذين أخذوا يتطلعون الى العاصمة القسطنطينية نفسها .

ويذكر المؤرخ النمساوي « فون هامر » ان القسطنطينية قد قد حوصرت تسعة وعشرين مرة منذ تأسيسها ، وكان أول من حاصرها من العرب في عهد معاوية بن ابي سفيان عام ٦٥٤ م ، ابنه يزيد ، ثم حاصرها فيما بعد سليمان بن عبد الملك ، ولكن بالرغم مما اعده المسلمون من كثرة الجند وعظم العدة في البر والبحر، وما أظهروه من قوة العزم والبسالة في الحصار ، فقد ردتهم القسطنطينية بأسوارها المنيعة ونيرانها الفتاكة على أعقابهم . وكانت النار الاغريقية الشهيرة لها ميزة السبق وانهاء المعارك ، وهو سلاح سري رهيب اخفته بيزنطة ولم تظهره إلا في الوقت المناسب والحالات الطارئة . وكان هذا السلاح هو العامل الحاسم في انتصار البيزنطيين على الاسطول الاسلامي الذي حاصر القسطنطينية سبع سنوات بقيادة مسلمة بن عبد الملك أخي الخليفة سليمان بن عبد الملك . وهذا السلاح عبارة عن مواد ملتهبة من بينها ملح البارود ومن خصائصه الاشتعال عند ملامسته الهدف .

وقد تطلع معاوية بن ابي سفيان الى اكمال السياسة الحربية التي بداها الخلفاء الراشدون من المدينة ، وتطلع الى تحقيق تلك الرغبة التي جاشت في نفسه ايام ان كان والياً على الشام لعمر وعثمان ، وهي الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الروم ، وتتويج الفتوحات الاسلامية ــ التي طوت المدائن عاصمة فارس من قبل ــ بهذه العاصمة الجديدة ، وشجع معاوية على الاقدام على تلك المحاولة الجريئة اعتلاء الامبراطور « قسطنطين الرابع » (٦٦٨ ــ

٦٨٥ م) الصغير السن عرش دولة الروم بعد مقتل أبيه « قنسطانز » .

اتجهت الحملة الاسلامية التي اعدها معاوية شطر القسطنطينية في نهاية عام ٦٧٢ م ، واشتبكت في عمليات حربية مع أساطيل الروم في مياه القسطنطينية على مدى سبع سنوات ، في الفترة من سنة ٦٧٤ الى سنة ٦٨٠ م ، على أن تلك الفترة برمتها لم تكن مسرحاً لحروب متصلة ، فكانت خطة المسلمين قضاء فصل الشتاء في جزيرة « كيزيكوس » ، وفي الربيع يحاصرون القسطنطينية براً وبحراً حتى يقبل الخريف ، فيعودون أدراجهم الى مقرهم الشتوي في « كيزيكوس » . وظل المسلمون يجاهدون على هذا النحو دون أن تتمكن أساطيلهم أو جيوشهم من الاستيلاء على المدينة . وقد اضطر معاوية الى رفع الحصار عن القسطنطينية حين أحس بدنو أجله ، ووجد أن الحكمة تقتضي وجود قواته قريبا منه للمحافظة على سلامة البيت الاموي الحاكم . وبعد عودة القوات الاسلامية من حصارها للقسطنطينية تحققت مخاوف معاوية ، اذ توفي بعد قليل في سنة ٦٠ هجرية (٦٨٠ م) تاركاً الدولة الاسلامية تجتاز مرحلة أخرى من الاضطرابات الداخلية والنزاع على الخلافة نفسها بين أسرته وبين كبار رجالات الدولة الاسلامية آنذاك .

ورغم تلك الخلافات والاضطرابات التي حدثت في الدولة الاسلامية لم يتخل المسلمون عن مطمحهم في الاستيلاء على القسطنطينية ، وعندما اشتدت حركة الفتوحات الاسلامية مرة

ثانية في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ ــ ٩٦ هـ) (٧٠٥ــ٧١٥م)
اخذ هذا الخليفة ــ الذي اقترن عهده بفتوحات واسعة ــ يعد
العدة لمهاجمة القسطنطينية ، لكن الوليد توفي قبل خروج الحملة
الى القسطنطينية واتجه اخوه وخليفته سليمان بن عبد الملك (٩٦
ــ ٩٩ هـ) (٧١٥ ــ ٧١٧ م) لتنفيذ هذا الهدف العظيم ، وتجلت
حماسة الخليفة ومن ورائه الدولة الاسلامية في اعداد جيش
واسطول عظيمين ، وسلم مقاليد الحملة لأخيه مسلمة . وفي
١٥ اغسطس سنة ٩٨ هـ (٧١٧ م) وقفت الجيوش البرية امام
اسوار القسطنطينية ، على حين وصل الاسطول الاسلامي الى مياه
القسطنطينية في اول سبتمبر سنة ٧١٧ م . ولأسباب خارجة
عن ارادة الاسطول الاسلامي لم يستطع احكام الحصار على
القسطنطينية ، وهبت رياح غيرت اتجاه السفن ، فارتطمت
بعضها وفقدت توازنها ووقع اضطراب شديد . وفي هذه الاثناء
حمل الروم بسفن محملة بالنار الاغريقية Greek Fire
حملة قوية زادت الاضطراب في الاسطول الاسلامي ، وقضت على
خططه ، والحقت به الهزيمة . وأقبل الشتاء على المحاصرين ،
فعانوا من ذلك الشيء الكثير الى جانب ركود حركاتهم الحربية .
وعندما اقبل الربيع تجدد الامل عند المسلمين ، اذ وصلتهم نجدات
بحرية جديدة من مصر وشمال افريقية ، لكن هذه السفن لم
تستطع بدورها إنجاز الخطة ، وخشيت ان تلقى نفس المصير
الذي لقيه الإسطول الاسلامي من قبل . وفي ١٥ اغسطس من عام
(٩٩هـ) (٧١٨م) وبعد حصار دام اثني عشر شهرا أمر الخليفة

الاموي الجديد عمر بن عبد العزيز الجيوش الاسلامية برفع الحصار والعودة الى بلاد الشام ، بعد ان وجد الا طائل من متابعة القتال .

وقد قامت فيما بعد عدة دويلات اسلامية على حدود الدولة البيزنطية ، كان غرضها حماية ثغور المسلمين ، والاغارة على املاك الدولة البيزنطية ، واستطاعت هذه الدويلات ان تنتزع منها معظم بلاد آسيا الصغرى وتضمها الى دار الإسلام .

وبظهور السلاجقة على مسرح التاريخ قامت دولتهم بدور كبير حيال الدولة البيزنطية ، فقد استطاع السلطان «ألب ارسلان» (٥٥٥ ــ ٥٦٥ هـ) (١٠٦٣ ــ ١٠٧٢) أن يهزم الامبراطور « رومانوس ديوجينوس » في موقعة « ملازكرد » ، بل وياسره ، ويضربه بالسوط ، اظهارا لعزة المسلمين واحتقاراً واستخفافاً بعدوهم ، ثم أملى عليه شروطاً قاسية ، واطلق سراحه بعد ان ملأه ذعراً ورعباً . وقبع ذلك الامبراطور المخذول بعد ذلك في عاصمة ملكه يدفع الجزية للسلطان السلجوقي . وكان لهذه الواقعة صدى كبير في دولة الروم اذ ضاعت آسيا الصغرى نهائيا من أيديهم ، كما قام في قونية فرع سلجوقي جديد واقتطع جزءا من بلاد الروم وسموا بسلاجقة الروم ، وكان لهؤلاء الفضل كل الفضل في تفتيت عضد الدولة الرومية ، حتى استطاعوا ان يصلوا الى سواحل بحر إيجة غرباً .

وخلف العثمانيون سلاجقة الروم في آسيا الصغرى كما ذكرنا من قبل ، وكان هدفهم فتح القسطنطينية منذ ان قامت دولتهم ،

وبعد ان عبروا بحر مرمرة وارسوا حكمهم في شرقي اوروبا، اصبح هذا الفتح ضرورة سياسية ملحة لهم . وقد كان العثمانيون في ذلك العهد اشد الناس حماساً للاسلام ، واصدقهم جهاداً في سبيله ، فحاصرها السلطان بايزيد الاول ، والسلطان مراد الثاني ، لكنهما لم يصلا الى نتيجة . ولما تزايد الخطر العثماني واستفحل لم يجد الامبراطور « يوحنا » مناصاً من اللجوء الى روما بنفسه ، فكان بذلك اول امبراطور بيزنطي زار الغرب ، واعلن للبابا « اوربان الخامس » في كنيسة القديس بطرس اعتناقه لمذهب اللاتين ، ثم سجد بين يديه ، واخذ يقبله من إخمص قدمه حتى قمة راسه . واحتفى البابا به واكرم وفادته ، ولم يجد ما يدفعه له سوى سفينتين اثنتين وثلاثمائة جندي وبضع دوقيات ليس غير .

وما أن جاء خلفه « امانويل » حتى شدّ رحاله بدوره الى الغرب يطلب المساعدة ، فمكث سنتين يطوف بلدان اوروبا المختلفة دون أن ينال شيئاً ، فعاد الى بلاده . وكان منذ أن خرج منها يتوقع في كل لحظة ان يباغته الخبر بسقوط القسطنطينية ، وما كان اشد فرحته عندما علم قبل وصوله الى القسطنطينية بهزيمة خصمة بايزيد وموته في أسر « تيمورلنك » . ولما وقعت الدولة العثمانية في الفوضى والاضطراب بسبب نشوب الخلاف بين ابناء بايزيد الاربعة لم يستفد الامبراطور «امانويل» من هذه الفرصة ، لكن هاله أن راى الدولة العثمانية قد انبعثت من جديد شامخة البنيان ، قوية الاركان ، وشرع مراد الثاني يواصل ما انقطع من الفتوحات في آسيا واوروبا كأن لم يكن شيء البتة ، وقد حاصر ذلك السلطان

العثماني بدوره القسطنطينية ، لكنه لم يتمكن من فتحها ، وجاء ولده محمد الثاني فاستطاع بما أظهره من جلد وشجاعة في الحصار والقتال المتواصل ان يفتح هذه المدينة التاريخية، وحقق بذلك حلم الفاتحين الاول ، كما حقق البشارة النبوية الكريمة : « لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الامير اميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش » .

الامبراطور « قسطنطين » آخر من جلس على عرش بيزنطة

اعتلى الامبراطور قسطنطين الحادي عشر عرش بيزنطة سنة ١٤٤٨ م ، وهو على يقين انه في خطر وأن من المستحيل أن ينال النصر ، لكنه استمر في القتال . وكانت تولية قسطنطين العرش نذير شؤم للدولة أدى بها في النهاية الى الانهيار التام . وسلك قسطنطين طرقاً جديدة للحصول على المعونات من أوروبا الغربية لإنقاذ القسطنطينية وخالف سلفه تمام المخالفة . وكانت أولى محاولاته عن طريق المصاهرة ، ففكر بالزواج بمارية الصربية أرملة السلطان مراد الثاني وذلك عقب عودتها الى وطنها بعد وفاة زوجها السلطان ، وبرغم أنها كانت في العقد الخامس من عمرها ، إلا أن قسطنطين الشاب الممتلىء الجسم قد قبل الزواج بها ، وكان يأمل من وراء هذا الزواج أن يكسب قوة والدها « جورج برانكوفتش » ، كما أن مارية الصربية كانت بمثابة الوالدة للسلطان محمد الثاني فلعلها تثنيه عن القيام ضده ، بيد أن أمر الزواج هذا

لم يتم ، فقد آثرت مارية ان تنذر نفسها لله ، واعتزلت الناس ، وقبعت في أحد الاديرة .

وهكذا شغل الامبراطور الشاب بأمر الزواج ، وتصور أنه لابد له أن يحدث مصاهرة يجلب من ورائها المساعدة ، للوقوف أمام جحافل العثمانيين الجارفة . واتجهت أنظاره هذه المرة الى مصاهرة امبراطور طرابيزون«داود كمنينوس»،كما أشار عليه رجال بلاطه ، لكن صديقا للامبراطور وهو المؤرخ « جورج فرانتزس » أشار عليه أن يصاهر ملك الكرج (جورجيا) ، علّه يجد منه المساعدة وقت الحاجة ، فان الكرج بلاد بدوية رجالها أشداء أقوياء . وقبل الامبراطور هذه المشورة ، وخطب ابنة ملك الكرج ، واغتبط ملك الكرج بهذه المصاهرة ، ووعد أن يقدم المساعدة للامبراطور ، على أن الزواج لم يتم ، وقامت الحرب بعد ذلك بين قسطنطين وبين السلطان محمد الثاني ، ودفن هذا المشروع وما علق عليه من آمال تحت أنقاض القسطنطينية .

ويقال أيضاً : ان الامبراطور قسطنطين قد فكر في الزواج من ابنة رئيس جمهورية البندقية ، لكنه ما لبث أن عدل عنه خوفاً من الراي العام الذي كان يتهمه بالميل الى اللاتين . بيد أن هذا العدول عن الزواج قد اعتبرته البندقية إهانة لها ، فكان ذلك من أسباب تثاقلها عن نصرة قسطنطين حينما أحاطت به الاخطار واشتد الحصار على القسطنطينية .

ومن جهة أخرى لم ييأس الامبراطور قسطنطين من معونة

الغرب ، واعتقد ان اشتداد الخطر على القسطنطينية وتطويقها بجيوش إسلامية سيحمل الغرب على المبادرة الى نجدته ونصرته، فبعث الى جميع ملوك الغرب وامرائه يستصرخهم ويستغيثهم ، كما بعث الى البابا نقولا الخامس يستنصره وينذره : بانه اذا سقطت القسطنطينية في يد الاتراك فانهم سيهجمون بعد ذلك على إيطاليا نفسها . وذكر له قسطنطين قبوله لما اتفق عليه في مجمع فلورنسه من امر توحيد الكنيستين ، واعتذر عما كان من مسلك الروم تجاهه . وكان قسطنطين في ذلك مثل من سبقه من الاباطرة لم يقبل هذا الاتحاد إلا طمعاً في نيل المعونة. اما في قرارة نفسه فلم يكن اقل عداءً من البطريرك ومن الشعب الرومي للاتين وكل ما جاء من روما .

وفي نفس الوقت لجأ قسطنطين الى حيلة جديدة أراد بها عدوه السلطان الشاب محمد الثاني ، فما كاد السلطان يجلس على العرش ويتسلم سيف عثمان حتى بعث اليه ان يدفع من فوره مصاريف الامير « اورخان » أسير القسطنطينية، وان تكون مضاعفةً ، والا فانه سيطلق سراح هذا الأمير ويثيره عليه، ويمده بجيش من عنده ويجلسه على عرش السلطنة ، مستغلاً بذلك الاحداث التي قام بها أمير القرمان ضد السلطان العثماني الجديد .

ومن هذه اللحظة التي انذر فيها الامبراطور قسطنطين السلطان محمداً الثاني ، عقد الاخير العزم على فتح القسطنطينية لتأمين دولته ، وابتدأ باستعدادات ضخمة ، أولها بناء قلعة

مواجهة لاسوارها ، جلب لها مواد البناء وآلاف الفعلة والبنائين من جميع انحاء السلطنة ، واشترك بنفسه مع كبار رجال دولته في اعمال البناء ، مما زاد رغبة العمال في العمل ، فازدادت مخاوف الامبراطور البيزنطي ، واشتد هلعه ، واحتج على تلك الاعمال التي اعتبرها نقضاً لما بينهما من العهود والمواثيق .

وهكذا اخذ قسطنطين ينظر من مدينته الى القلعة الجديدة وهو جدّ حزين،وجعل يراها وهي تنمو كل يوم وترتفع شامخة الرأس، وكان يزيد حزنه ان يرى سفن النقل تجلب اليها الرجال ومواد البناء وهو لا يستطيع منعها او عرقلتها . ولم تمض ثلاثة شهور حتى تم بناء القلعة في شكل مثلث ، سمك جدارها عشرون قدماً، وفي كل زاوية منها برج ضخم مغطى بالرصاص سمكه اثنان وثلاثون قدماً . كما أمر السلطان ان ينصب على الشاطىء مجانيق ومدافع ضخمة ، وأن تصوب افواهها الى القناة وتمنع السفن الرومية والغربية عامة من المرور ، وسماها السلطان الفاتح « بوغازكش » اي قاطعة البوغاز ، وعرفت فيما بعد « بروملي حصار » ، اي قلعة الروم . ووقفت تجاه القلعة التي بناها السلطان بايزيد على الشاطىء الآسيوي والتي تعرف باسم « كوزل حصار » اي القلعة الجميلة ، او « اناضولي حصار » بمعنى قلعة الاناضول .

الفصل الثالث

فتح القسطنطينية

- بوادر الحرب بين الفاتح وقسطنطين .
- المدفع السلطانـي .
- بدء القتـال .
- استراتيجية القسطنطينية .
- استعدادات الامبراطور قسطنطين .
- معركـة غلطـة البحريـة .
- معركة القرن الذهبـي البحريـة .
- الحـرب النفسية .
- الهجـوم الاخير العـام .

فتح القسطنطينية

بوادر الحرب بين الفاتح وقسطنطين

كانت النتيجة الحتمية لبناء قلعة « روم‌للي حصار » ومحاولات الرومانيين هدمها والاعتداء على عمالها ، أن أعلن السلطان الحرب رسميا على الدولة الرومانية ، وعين «فيروز آغا» قائدا للقلعة الجديدة ومعه اربعمائة من خيرة جنود الانكشارية ، وامره الا يسمح لأي سفينة اجنبية بالمرور إلا بعد تفتيش دقيق ودفع الضريبة ، وان ابت اطلق عليها القذائف . واخذت حامية الحصن تنفذ خطتها بانتظام ، وفرضت سيطرتها التامة على المنطقة المحيطة بها ، وادرك الامبراطور قسطنطين أن محاولاته للمحافظة على السلام بأي ثمن لن تفيده شيئا ، فلا شيء يرضي العثمانيين غير القضاء على ملكه وغير الاستيلاء على مدينته ، فأغلق أبواب القسطنطينية وبعث الى السلطان محمد الثاني بما عزم عليه في رسالة خطية يقول فيها:

« لما كان من الجلي انك تريد الحرب أكثر من السلام ، ولما كنت غير مستطيع أن اقنعك بإخلاصي واستعدادي لأن اكون لك تابعا ، لذا فالامر لله وسأوجه وجهي الى الله ، فاذا كانت ارادته تقضي بأن تصبح هذه المدينة مدينتك ، فلا مرد لقضاء الله وقدره ،

واما اذا الهمك الرغبة في السلام فسأكون سعيداً ما بقيت . ومع ذلك فاني أعفيك من كل تعهداتك واتفاقاتك معي ، وسأغلق أبواب هذه المدينة وأدافع عن شعبي الى آخر قطرة من دمي .... » .

وقبض الامبراطور قسطنطين على كل الاتراك الموجودين داخل المدينة عندما أرسل اليه السلطان اعلان الحرب ، وظهر السلطان العثماني فجأة بجيش يبلغ خمسين ألفا الى جوار أسوار المدينة ، ثم رجع هو الى أدرنة بعد أن اعطى تعليماته وأوامره لقواده ، ولم يقم الرومانيون بأية حركة معادية ، وكان غرض السلطان من هذه العملية التي دامت ثلاثة ايام الاستطلاع ، والتعرف على اسوار المدينة وأبراجها ، واختبار مدى قوتها واستعداداتها .

رجع السلطان الى ادرنه ليتم استعداداته ، وعمل على منع اخوي الامبراطور « توماس وديمتريوس » حاكمي شبه جزيرة المورة من مساعدة أخيهما الامبراطور قسطنطين . وأرسل السلطان جيشاً قوياً بقيادة « تورخان » فاكتسح شبه الجزيرة الاغريقية من ادناها الى أقصاها ، وتمكن من وقف اي امدادات تتجه الى المدينة المحاصرة . وفي تلك الاثناء قويت عند السلطان محمد الثاني فكرة فتح القسطنطينية ، وسيطرت هذه الفكرة على جميع جوارحه حتى أنه كان لايتحدث الا في هذا الامر ، ولا يأذن لأحد ممن يجالسه بالتحدث في غير هذا الموضوع ، وحتى أصبح أمر الفتح همه الذي يشغله بالليل والنهار ، بل قد ارقه وحرمه النوم .

وفي نفس الوقت كان الامبراطور الشاب قسطنطين وزمرة

من شجعان أهل القسطنطينية قد اخذوا في تحصين المدينة واعداد وسائل الدفاع التي قدروا عليها ، وكان أول عمل لهم اصلاح الاسوار المهدمة التي أبلاها الدهر وتصدعت امام اغارات المغيرين المتكررة ، واستخدموا أحجار القبور والكثير من الآثار القديمة والمنازل المتهدمة لهذا الفرض ، وجمع ماعند الناس من الذخائر والاسلحة بكل سرعة ، وكذلك الغلال والمؤن والزيت . وأرسل الامبراطور البعثات الصارخة الى أوروبا تطلب النجدة ، واستمر ذلك طوال شتاء عام ١٤٥٢ م . وكان معظم سكان المدينة قد فقدوا الامل في وصول أي نجدة ، وان كان النصارى في اوروبا قد ظلت لديهم بعض الآمال في حدوث معجزة تنقذ حصن النصرانية الشرقي .

بدات بوادر الحرب تظهر منذ شهر فبراير ١٤٥٣ م ، وذلك اثر اتمام تجهيزات السلطان واستعداداته للهجوم ، وتنظيم وسائله وخطوط مواصلاته وتأمين خلفية جيشه ، فقد جمع جيشاً عظيماً ذكر بعض المؤرخين انه بلغ ربع مليون ، وأنشأ اسطولا ضخما ، وملأ حصونه بالاسلحة والذخيرة ، وبدأت الحرب الفعلية عندما هاجمت السفن الاغريقية الشواطىء التركية الاسلامية ، فأخذت من قدرت عليه ، وقتلت من قتلت ، وخربت ما استطاعت ، وباعت في الاسواق ما غنمته ، ولم تدع من أذاها مسلما او نصرانيا ، وهجموا على الكنائس والمساجد ينهبون ما فيها من كنوز وتحف ، ودمروا مدينة ازمير تدميراً تاما واشعلوا فيها النار ، فلما علم السلطان

بذلك ازداد تصميما على فتح المدينة واقسم لينتقمن لسكانها اشد انتقــام .

وبدأت ترد الى القسطنطينية نجدات بسيطة ، هدات بعض الشيء من روع سكانها ، فجاءت سفينتان بندقيتان استطاعتا أن تمرا الى البوسفور وتلقيا مراسيهما في مياه القرن الذهبي .

وجاء الكاردينال « إيزيدور » مبعوث البابا في روما ومعه مائتا مقاتل لنجدة المدينة ولاتمام توحيد الكنيستــين الشرقيــة والغربية ، وتبعته ثماني سفن من جزيرة « كريت » تحمل النبيذ للمحاصرين .

ثم جاء المغامر الجنوي « جون جستنياني » على سفينة محملة بالمؤن والذخائر ومعه سفينة اخرى جملة رجالها سبعمائة مقاتل ، وقد استقبله الامبراطور قسطنطين استقبالاً عظيماً ، وعينه قائداً عاماً للقوات المحاصرة . وأخذ « جون جستنياني » ــ الذي قــدم متطوعاً للدفاع عن حصن النصرانية الشرقي ــ على عاتقه من وقت تعيينه امر تنظيم الدفاع عن القسطنطينية ، فنظم وضع مدافعــه الصغيرة على الاسوار في نقط معينة ، وقسّم المدافعين حسب شعوبهم وأجناسهم ، وخصص لكل واجباته ، وقام بتدريب الرهبان المدنيين الذين يجهلون فن الحرب كلية ، وليس لديهم من وسائلها الا الحماس لها والرغبة في قتال المسلمين لانقاذ مدينتهم وحصن ديانتهــم .

وكلف الامبراطور قسطنطين جون جستنياني واتباعه بمهمة

الدفاع عن النقط الخطرة والابواب المهمة ، واجمعت كلمة الجميع : لاتين واغريق وبنادقة وجنويين ، كاثوليك وارثوذكس على ضرورة الدفاع عن المدينة الى آخر رمق في حياتهم .

وقرر الامبراطور وضع سلسلة لإغلاق القرن الذهبي أمام السفن القادمة تبدأ من طرف المدينة الشمالي وتنتهي عند حي غلطه، تلك المدينة الجنوية المستقلة التي ترك لسكانها أمر حمايتها عند طرفها الشمالي ، وهذه السلسلة هي التي وقفت امام الاسطول التركي ، وعملت على حماية السفن التي تجمعت وراءها ، وكان لها شأن كبير ودور هام في الدفاع عن المدينة المحاصرة .

اما الاتراك فكانت استعداداتهم عظيمة ، فقد استطاع السلطان محمد الثاني تدمير كل القرى المجاورة للقسطنطينية ، ففقدت المدينة الكبيرة الاتصال كلية بالبلاد المجاورة لها ، وكان عليها أن تعتمد على المؤن والذخائر والقوة الموجودة بداخلها . وكان الجنود العثمانيون ــ النظاميون وغير النظاميين ــ قد تجمعوا في « أدرنة » عاصمة السلطان الاوربية ، ومعسكر الترك الكبير ، وكان بين الجند العثمانيين عدد كبير من النصارى الذين لاهمّ لهم غير القتال والسلب والنهب . وكان حماس الجيش العثماني للقتال عظيماً وكان رجاله قد سيطرت عليهم فكرة الجهاد في سبيل الله ، واعزاز دينهم ، ورغبوا في الشهادة ، وتطلعوا الى المثوبة العظمى من الله سبحانه ، ووثقوا بالنصر المؤزر ، وشاركهم في ذلك الشيوخ والعلماء وشدوا من ازرهم وبثوا فيهم الروح القوي وحضوهم على الجهاد

واخلاص النية . اما السلطان ، فقد كان اكثر رجاله يقظة واكثرهم اهتماما وتفكيرا في أمر المعركة ، ولم يغمض له جفن لفرط اهتمامه في هـذا الشأن .

المدفـع السلطانـي

وفي تلك الاثناء حضر الى السلطان الفاتح المهندس المجـري « اوربان » فاراً من وجه قسطنطين وعرض عليه ان يصنع لـه مدافع تدك أسوار القسطنطينية ـ وكان هذا الرجل قد عرض خدماته على الامبراطور قسطنطين ، فلم يمنحه المكافأة التي كـان ينتظرها نظراً لفقر المدينة وحالة أسوارها السيئة التي ما كانت تسمح بوضع مدفع كبير عليها ـ فاستقبله السلطان استقبـالاً حسناً ، وأغدق عليه الاموال ، وعرف كيف يستفيد منه اكبـر استفادة وسهّل له كل الوسائل لاتمام اختراعه ، ووضع تحت تصرفه ما طلبه من آلات وفنيين . وشرع « أوربان » في صنع المدافع يعاونه في ذلك المهندسون الاتراك ويشرف عليهم السلطان بنفسه . وبعد ثلاثة اشهر أتم «اوربان» صنع عدد من المدافع ، وكان من بينها مدفع ضخم عملاق لم يُر مثله قط ، فقد كان يزن سبعمائة طن ، وتزن القذيفة الواحدة اثني عشر الف رطل ، ويجره مائـة ثـور يساعدها مائـة من الرجـال الاشداء ، ويزحفون بـه زحف السلحفاة . وعندما ارادوا تجربته لأول مرة في أدرنه انذر السلطان سكان المنطقة ، فسمع دويه على بعد ثلاثة عشر ميلا ، وسقطت قذيفته على بعد ميل ، وصنعت حفرة في الارض عمقها ستة أقدام .

وقد قطع هذا المدفع ـ الذي اسماه الترك «بالمدفع السلطاني» ـ الطريق من ادرنة الى موضعه امام اسوار القسطنطينية في شهرين اثنين . وسر السلطان محمد الثاني بنجاح التجربة ، واجزل العطاء لهذا المهندس وللمهندسين الاتراك ، وزادت ثقة السلطان وجنده بالنصر ، وايقنوا انهم سوف يحققون هدفهم الكبير بفتح القسطنطينية واسقاط دولة الرومان .

بدء القتال

لم يخف على الامبراطور قسطنطين استعدادات الاتراك ، خاصة عندما ظهر الجيش العثماني في الخامس من شهر ابريل ١٤٥٣ م امام أسوار القسطنطينية وأمامه العلماء والاشراف من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبدت الفرق العثمانية بجانب بعضها البعض في اعلامها وطبولها وابواقها وموسيقاها وخيلها ومدافعها ودواب الحمل الكثيرة العدد . ونصب السلطان سرادقه ومركز قيادته محاطاً بالخنادق على الشاطىء الايسر لوادي نهر « ليكوس » أمام باب القديس « رومانوس » حيث سلطت عليه المدافع القوية البعيدة المدى ، ثم اتجه السلطان الى القبلةوصلى ركعتين وصلى الجيش كله وبدأ يعد العدة للحصار الفعلي .

نسق السلطان قواته تنسيقا دقيقاً طبقا لخطة حربية محكمة، اشترك معه في وضعها كبار قواد الدولة وقادة الوحدات ، وكانت الخطة تقضي بأن يتعاون الفرسان مع المشاةمعالمدفعية ، والجنود

النظامية والفرق الخاصة مع الجنود غير النظامية في حصار المدينة والهجوم عليها . ووضع السلطان بناء على هذه الخطة الفرق الاناضولية ـ وهي اكثر الفرق عددا ـ عن يمنه الى ناحية بحر مرمرة ، ووضع الفرق الاوروبية عن يساره ، وامتدت حتى القرن الذهبي ، والتف الحرس السلطاني المكون من نخبة الجنود الانكشارية وعددهم خمسة عشر الفا حول السلطان في الوسط ، وكان واجبهم تعضيد الهجوم في جبهة باب القديس « رومانوس » وعملية اقتحام المدينة من هذه الناحية وهي اضعف نقطة في الدفاع . وجمع السلطان اسطولاً عظيماً مكوناً من ٣٥٠ سفينة بين كبيرة وصغيرة في مدينة « جاليبولي » قاعدة العثمانيين البحرية في ذلك الوقت ، وصدرت اليه الاوامر بعبور بحر مرمرة الى البوسفور حيث ألقى مراسيه هناك، وانضمت اليه بعض القطع الحربية العثمانية من البحر الاسود واصبح منظره ومنظر الجيوش المحاصرة يوحي بالقوة والعظمة والمجد الشامخ .

واقترب العثمانيون من الاسوار طبقا للخطة الموضوعة ، وبدأ الحصار الفعلي يوم ٦ / ٤ / ١٤٥٣ م ، عندئذ طلب السلطان من الامبراطور قسطنطين ان يسلم المدينة للاتراك ، وتعهد السلطان محمد بأن يحترم سكانها ويؤمنهم على أرواحهم ومعتقداتهم ، وممتلكاتهم لكن الامبراطور قسطنطين رفض هذا الطلب واعتمد على حصون المدينة المنيعة ومساعدة الدول النصرانية له .

بدأ السلطان العثماني تقسيم القيادات العسكرية وتنسيق

قطاعاتها ، فجعل زغنوس باشا الالباني الاصل على راس الجيش غير النظامي وحدد له مهمته بمراقبة سكان حي غلطة الجنويين ، ومنعهم من مد يد المساعدة الى المدينة المحاصرة . وجعل صاريجه باشا على الميسرة ، وهو حاكم الروملي ، وحدد له مهمته بالهجوم على المدينة من بداية القرن الذهبي . وجعل الاشراف على المدفعية، وقيادة الجنود الآسيوية (الاناضولية) لاسحاق باشا حاكم الاناضول يعاونه محمود بك ، وكل منهما قائد عظيم ، كبير التجربة في مسائل الحرب ، وعلى دراية واسعة بفنونها . وجعل السلطان نفسه ومعه خليل باشا وزيره الاول في قيادة المنطقة الوسطى . وحدد السلطان مهمة الاسطول في : منع وصول التموين والعتاد الحربي الى المدينة عن طريق البحر ، ومهاجمة السفن التي تحرس السلسلة التي تغلق مدخل القرن الذهبي ، ومحاولة اقتحامه ، وتدمير السفن الراسية فيه ، واحداث اكبر كمية من الخسائر في الارواح بما تقذفه من نيران على حصون المدينة المطلة على البحر ، واخيراً : التعاون مع الجيش البري في حصار المدينة . وأمر السلطان محمد الثاني قائد الاسطول العثماني « بالطه أوغلى » بتطهير بحر مرمرة من الجيوب الرومية المعسكرة في جزره ، والاستيلاء على جزر الامراء والتي كانت منفى لاباطرة الروم وأمرائهم ، فاستولى عليها قائد البحرية العثمانية وأطلق سراح المسجونين والمعتقلين ، وأخرجهم من السجون والسراديب المظلمة التي كانوا فيها ، ثم وضع في هذه الجزر حاميات عثمانية .

استراتيجية القسطنطينية

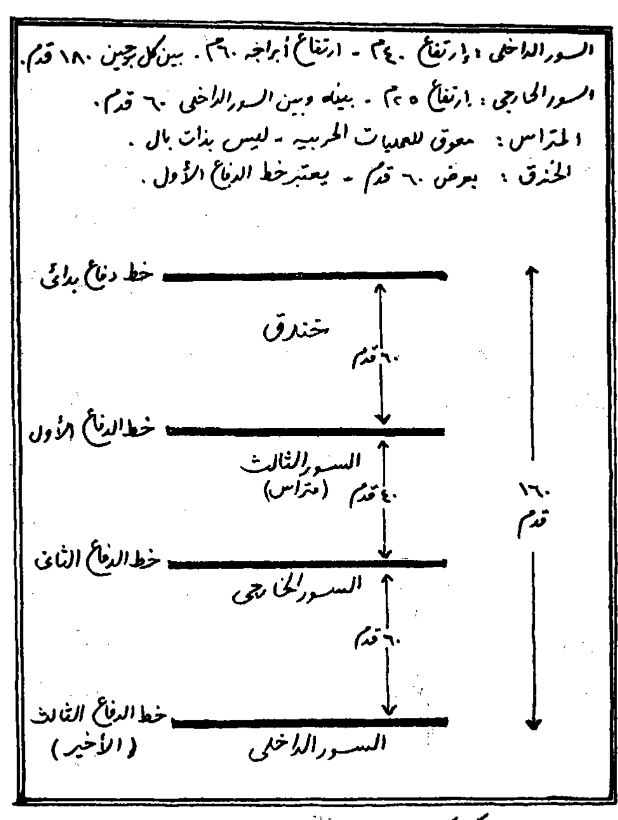
كانت القسطنطينية ـ كما هو ظاهر في المصور الموجودة في الصحيفة (٨٩) ـ مثلثة الشكل ، جانب منها على بحر مرمرة ، وجانب على ميناء القرن الذهبي ، ويمتد على طول كل منها سور واحد ، أما الجانب الثالث فيقع في الجبهة الغربية ويصل القسطنطينية بأوروبا ، وكان لها هناك سوران طولهما أربعة أميال ، يمتدان من شاطىء بحر مرمرة الى شاطىء القرن الذهبي ، ويبلغ ارتفاع السور الداخلي منهما نحو أربعين قدماً ، وقد دعم بأبراج طولها ستون قدماً ، وتبلغ المسافة بين كل برج وآخر نحو مائة وثمانين قدماً .

ويبلغ ارتفاع السور الخارجي نحو خمس وعشرين قدماً ، وقد حُصِّن أيضا بأبراج شبيهة بأبراج السور الاول وان كان أصغر من سابقه حجماً ، وبين السورين فضاء يبلغ متوسط عرضه ما بين خمسين وستين قدماً . ويقع أمام السور الخارجي سور ثالث ليس بذي قيمة ، سهل الاقتحام ويمكن تسميته متراساً ، وبين السور الخارجي والمتراس المشار اليه يوجد ارض فضاء ، ثم أمام هذا المتراس خندق واسع يبلغ عرضه نحو ستين قدماً ، ويعتبر هذا الخندق خط الدفاع الاول عن مدينة القسطنطينية[١] .

وللسور الخارجي أبواب عديدة ، والتي جاء ذكرها أثناء الحصار هي :

---

(١) ـ انظر (شكل رقم ١) في الصحيفة ٨٧ .



رسم كروكي يبين عمق دفاعات القسطنطينية

شكل رقم "١"

١ ــ باب أدرنــه .

٢ ــ باب المدفع (طوب قپو) ، وكان يسمى قديماً بــاب القديس رومانوس .

٣ ــ الباب العسكري .

واقام السلطان محمد الثاني مع جنوده المختارة تجاه هــذا السور وجعلهم ثلاثة اقسام :

القسم الاول :

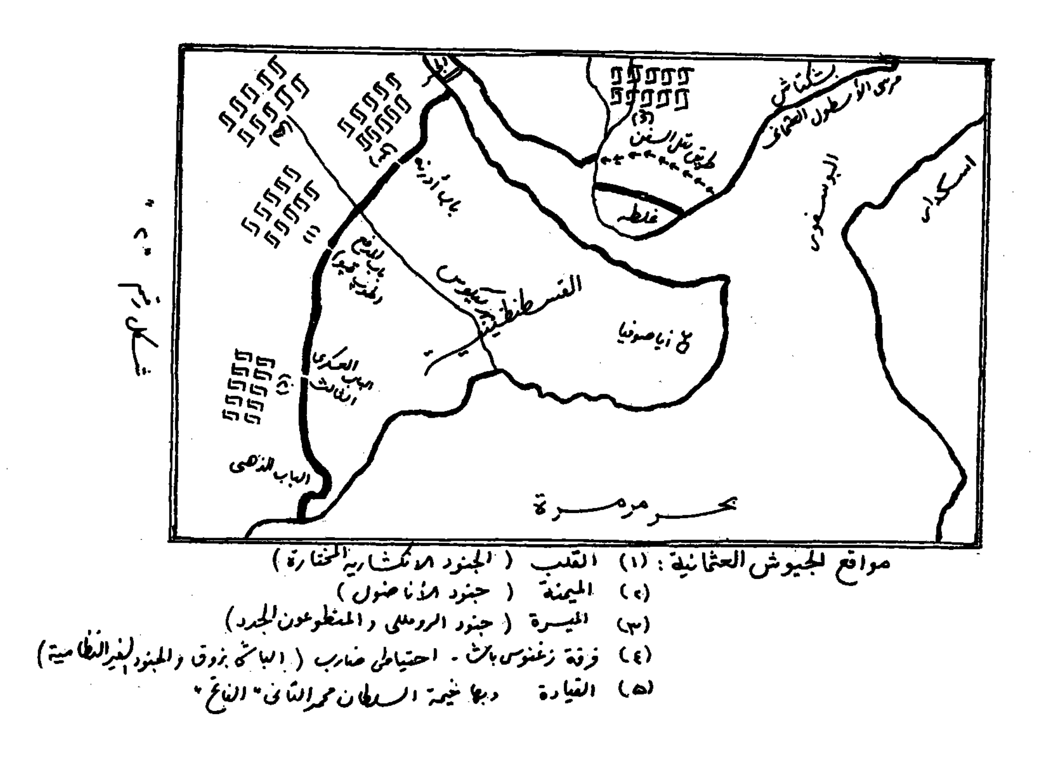
الميمنة : وتتألف من جنود الاناضول بقيادة اسحاق باشا ومحمود بك ، ويمتد من الساحل الجنوبي لدفاعات المدينة عند بحر مرمرة الى باب « طوب قپو » .

القسم الثاني :

الميسرة : وتتألف من جنود اوروبا والمتطوعين والجنود غير النظاميين بقيادة « قره جه باشا » ويواجه جزءا من السور يمتد من اقصاه الشمالي عند ميناء القرن الذهبي الى باب أدرنه .

القسم الثالث :

القلب : ويتألف من جنود الانكشارية ، والجنود المختارة التي تتكون منها الفرق الخاصة والانتحارية بقيادة السلطان محمد الثاني نفسه . ويواجه من السور الجزء الاوسط منه الذي يمتد من باب « طوب قپو » الى « باب أدرنه » (أدرنه قپو) .



مواقع الجيوش العثمانية : (١) القلب (الجنود الانكشارية المختارة)
(٢) الميمنة (جنود الأناضول)
(٣) الميسرة (جنود الروملي والمتطوعون الجدد)
(٤) فرقة زغنوس باشا - احتياطي صارب (الباشي بزوق والجنود الغير النظامية)
(٥) القيادة وبها خيمة السلطان محمد الثاني " الفاتح "

شكل رقم " ٢ "

مركز القيادة :

اقامها الفاتح خلف القلب[1] .

وعسكر زغنوس باشا الالباني مع فرقته في المرتفعات المشرفة على حي غلطة لمراقبة الجنويين ضمنها ، ومنعهم من امداد القسطنطينية ، ومراقبة الشاطىء الشمالي من القرن الذهبي ، وكانت فرقة زغنوس باشا معدة كاحتياطي للاشتراك في الهجوم على المدينة من ناحية البر عند الحاجة . ونصب السلطان محمد أمام السور البري المدافع والمجانيق واحكم وضعها وتنسيقها ، وكانت هناك أربعة عشرة بطارية مدفع ، في كل واحدة منها اربعة مدافع ، نصبت الكبيرة الضخمة أمام باب القديس رومانوس ، وعرف هذا الباب ــ فيما بعد ــ بطوب قپو اي باب المدفع ، تذكارا لهذا المدفع السلطاني .

استعدادات الامبراطور قسطنطين

كانت اسوار القسطنطينية بالرغم من الخراب الذي لحق ببعض أجزائها على مر العصور منيعة ، تمتد من القرن الذهبي الى بحر مرمرة . وكان يقوم في كل زاوية من ذلك السور حصن قوي ، وقد وقف أمام الجيش العثماني ومدفعيته الحديثة الهائلة الشديدة الانفجار والقوية التأثير ، وأمام الاسطول التركي الكثير

(١) ــ (انظر الشكل رقم ٢) في الصحيفة ٨٩ .

العدد ، عند باب القديس « رومانوس » ـ اخطر نقطة في السور ـ ثمانية آلاف من المدافعين ، يعاونهم عدد كبير من سكان المدينة الذين جندوا للدفاع عنها ، أو لمساعدة الدفاع ونقل أدواته ، وترميم الاجزاء التي تخربها او تهدمها المدافع العثمانية .

وكان هناك فرقة الاجانب المكونة من ثلاثة آلاف مقاتل، وتتألف من محاربين : جنويين وبنادقة وعناصر من كريت وروما واسبانيا، وقد قدم هؤلاء جميعا للدفاع عن المدينة ، وتقديم المساعدة الحقيقية في هذه المحنة الرهيبة ، أما الدوافع : فربما كانت دينية ، وربما كانت مادية تجارية ، وربما كانت حب المخاطرة والمغامرة وركوب الصعب . وقد تكون هذه الدوافع مجتمعة وراء ذلك .

وعسكر الامبراطور قسطنطين في مواجهة السلطان الفاتح ، وحشد جنوده في ناحية وادي ليكوس وهي المنطقة الضعيفة في الاسوار عند باب القديس رومانوس ، وبدأ يعقد المجالس العسكرية لتنظيم امر الدفاع عن المدينة واخذ المشورة من كبار قادته ، وعهد الى جون جستنياني بمهمة الدفاع عن هذه الناحية .

وكان تسليح المحاصرين بصفة عامة سيئاً ، فلم يكن لديهم السلاح الكافي ولا السلاح الجيد الحديث ، ولم يكن لديهم أيضا مدفعية قوية ، وحتى مدافعهم الصغيرة القصيرة المرمى فانهم لم يستطيعوا نصبها على الاسوار خشية الا تتحملها ولا تتحمل اصوات انفجاراتها .

وقد اتفق الكتاب المعاصرون من الروم على وجه يشبه الاجماع

ان المدافعين عن مدينة القسطنطينية كانوا ثمانية آلاف مقاتل ، وكاد يجمع المؤرخون المحدثون من الاوروبيين على الاخذ بهـذا التقدير ، ويذكرون أن نصفهم كان من الروم والنصف الآخر من اللاتين . أما المؤرخون الاتراك فيقدرون عدد المدافعين بأربعين الف مقاتل ، يقف الى جانبهم ذلك السور الضخم المنيع العملاق ، وذكروا أن حِدّة النزاع في المدينة بين الروم واللاتين قد هدأت وأن الخطر المحدق بالمدينة انساهم خصوماتهم ، فالتفوا حـول الامبراطور يشدون من أزره ، وعقدوا العزم على الموت دفاعا عن مدينتهم .

وهنا يجب ان نشير الى موقف مستعمرة غلطة الجنوية ، جارة القسطنطينية من جهة الشمال ، فنقول : انها وقفت موقف الحياد التام حرصا على رضا السلطان الشاب القوي ، وتمسكت بهذا الحياد فلم تساعد أحداً من الفريقين ولم تنصر احدهما على الآخـر .

وقد بعث الامبراطور قسطنطين الى السلطان محمد الثاني يحاول صرفه عن الحرب ، لكن السلطان العثماني قال للرسل : **« فليسلّم لي امبراطوركم مدينة القسطنطينية ، واقسم بان جيشي لن يتعرض لأحد في نفسه وماله وعرضه ، ومن شاء بقي في المدينة وعاش فيها في أمن وسلام ، ومن شاء رحل عنها وذهب حيـث أراد في أمن وسلام أيضا** . عند ذلك ايقن قسطنطين ان الحـرب لابدّ واقعة ، فحاول تخريب قلعة « روملي حصار » ، ولكـن

الاتراك تصدوا للروم الذيـن قاموا بهذه المحاولة وردوهم علـى أعقابهم خائبين .

واشتد ذعر الامبراطور وايقن أن نهايته قد قاربت وأن مصيره اصبـح معلقا بيد سلطـان العثمانيين ، فأمر باغـلاق ابـواب المدينة ، وقبض على جميع من فيها من الاتراك وكان فيهم بعض غلمان السلطان محمد الثاني ، فاطلق قسطنطين سراحهم وردهم الى سيدهم ومعهم رسالة يقول فيها : « اذا كانت المدينة يهددها الخطر ، فان الامبراطور يلوذ بالله » . ولم تقفل أبواب القسطنطينية إلا بعد أن نقضت الهدنة علانية .

واخذت مدافع العثمانيين بعد ان احكم وضعها وتسديدهـا تطلق قذائفها الهائلة على السور ، وظلت على ذلك ليلا ونهاراً لا تكاد تنقطع . وكان يسمع لاصطدام القذيفة بالسور دوي هائل ، يملأ قلوب اهل القسطنطينية رعباً وهلعاً ، وبخاصة في ساعـات الليل الهادىء ، ويملأ الفضاء بسحب الدخان والتراب . ووجم الناس في القسطنطينية ،وانتابهم نوع من الذهول،وما ظنوا قط أن للمدافع كل هذا الاثر ، واستبسل الفريقان المتحاربان : المهاجمون والمدافعون في القتال والنزال ، فكان المدافعون وعلى رأسهم جون جستنيان والامبراطور لا يكاد يهدم جانب من السور حتى يسرعوا الى اصلاحه وترميمه ، وكان المحاصرون لا ينقطعون عن رمي قذائفهم علـى السور ، ويندفعون بين الحين والحين لاقتحامه على راسهم جنود

الانكشارية الذين اظهروا شجاعة نادرة واقداماً فائقاً ولم يبالوا بالمـوت .

استطاعت المدافع العثمانية بقذائفها المتواصلة والمؤثـرة أن تهدم جزءا من السور الخارجي عند واديليكوس ، وقد امتـلأ الخندق بأنقاض السور وشظايا القنابل ، فاندفع الجنود العثمانيون نحو الثغرة ، وتسلقوا السور بالسلالم ، ووصل بعضهم الى نقاط فوق السور ، وكاد يتم إقتحام السور لولا أن جون جستنيان قذف بجميع جنده المدربين المدرعين ، واشتد القتال بين الجانبين وارتفعت الصيحات من كلا الطرفين ، وانهمرت علـى الاتـراك العثمانيين السهام من كل جانب ، واستمر قتال عنيف الى ان اظلم الليل ، فأمر السلطان محمد الثاني جنوده بالانسحاب بعد أن خبر قوة المدافعين وأسلحتهم واستعدادهم .

وفي نفس الوقت حاولت بعض السفن العثمانيـة تحطيـم السلسلة القائمة على مدخل ميناء القرن الذهبي واقتحامه ، ولكن السفن البيزنطية والايطالية التي كلفت بالحراسة والواقفة وراء السلسلة ، كانت أكثر ارتفاعا ، فسهل عليها اصطياد السفـن التركية ، وصب قذائفها ونيرانها عليها وردتها خائبة .

وكان الاسطول العثماني مجهزاً بكل وسائل الحرب المعروفة في ذلك الوقت ، ويحمل عدداً كبيرا من المحاربين،وتسير معظم سفنه بالمجاديف ، إلا أن رجال البحرية العثمانية وعلى راسهم قائدهم « بالطه أوغلي » لم تكن لهم الدراية الكافيةولا الخبرة الممتازة في

الحروب البحرية ، كما أصابهم كذلك بعض الزهو والغرور لكثرة عدد سفنهم ، ولم يقدّروا ما لعدوهم من قوة قتالية وخبرة عملية ومعرفة بأمور الحرب البحرية ، فهاجمت القطع البحرية العثمانية اعداءها ، وألقت بأحجارها ورمت بأسهمها النارية عليها،وطرحت على سفن العدو قوارير النفط ، واقتربتمن سفن الخصوم تحاول إحراقها وتدميرها وقطع حبال سفنها ومراسيها . لكنّ سفن البيزنطيين وحلفائهم اظهرت جلدا وصبرا كبيرين ، فكانت تصيب سفن العثمانيين ولا تستطيع تلك إصابتها بسهولة ، على الرغممن استعدادها الحربي الكبير ، وكلما حصل اشتباك تكون الدائرةعلى السفن التركية ، ولم تجد شجاعة افرادها شيئا امام قوة العدو ونيرانه الإغريقية الفتاكة ، مما اضطر الأسطول العثماني الى الانسحاب تتبعه صيحات الأعداء وهتافاتهم المعبرة عن فرحهم .

واغتبط اهل القسطنطينية بنجاحهم في صد الاتراك في البر والبحر ، واشتد ساعدهم . وقوي أملهم في صدهم في المستقبل ، وذهب الامبراطور قسطنطين مع البطريرك الى كنيسة «سانت صوفيا » وصلى صلاة شكر لله على ما أولاه من الثبات . أما السلطان محمد الثاني فلم تهن عزيمته لهذا الفشل ، بلزادهذلك تصميما على بلوغ هدفه الكبير ــ فتح القسطنطينية .

معركة غلطة البحرية

ثم حدث في ٢٠ ابريل ــ نيسان ــ من نفس العام ، انظهرت في بحر مرمرة خمس سفن غريبة قادمة منالغرب : اربع منها بعث

بها البابا لمساعدة القسطنطينية ، والخامسة للإمبراطور قسطنطين نفسه كانت تحمل جنودا ومؤنا وبضائع وسلاحا ، ورأى الاتراك هذه السفن الخمس تقترب من المدينة المحاصرة ، عند ذلك أمر السلطان العثماني قائده البحري «بالطه أوغلي» بمهاجمة هذه السفن بعد مباغتتها وتدميرها ، وان لم يستطع فلا أقل من منعها من الوصول الى المدينة المحاصرة . وختم السلطان محمد الثاني أمره العسكري لقائده البحري « **إذا لم تنجح في ذلك فلا ترجع لي حياً** » .

عند ذلك طاب « بالطه أوغلي » من هذه السفن التسليم وإلا يصيبها الدمار في إنذار شديد اللهجة ، لكن السفن الخمسة رفضت بإباء الانصياع للقائد التركي ، وقامت معركة بحرية حامية بين السفن الخمس ومن خلفها السفن البيزنطية وراء السلسلة المطلة على مدخل القرن الذهبي وبين السفن العثمانية الكثيرة العدد المنتشرة في المنطقة برمتها ، والتحم الفريقان المقتتلان ، وزاد الصخب ، وعم الهدير ، وسقط القتلى من الأتراك نتيجة اندفاعهم واستماتتهم في القتال ، وكانت الريح في بادىء الأمر تساعد السفن البابوية وتمكنها من ضرب البحرية التركية ، لذا أصاب السفن العثمانية الكثير من الضرر . ثم تغير اتجاه الريح فجأة ، فتحول الموقف لصالح الأتراك ، واستمر القتال بعنف وضراوة حتى تلاحمت السفن . وبالرغم من أن السفن العثمانية المشتركة في هذه المعركة كانت كثيرة العدد ، إلا أن السفن التركية لم تحرز نصراً

على سفن أعدائها ، فقد كان الإيطاليون مدرعين مسلحين ، وفي تمام النظام والمقدرة القتالية ، وسفنهم هي الاخرى كانت متفوقة في الحجم والقوة . وكان سكان المدينة يشاهدون المعركة ويشجعون الايطاليين بهتافاتهم وبرفعهم الرايات الصليبية . وكان السلطان محمد الثاني بدوره ينظر الى المعركة من الساحل ويأمل بين الحين والآخر القضاء على سفن أعدائه ، التي أخذت تصب قذائفها ونيرانها الفتاكة على القوارب العثمانية الصغيرة ، وهي تحاول بمجاديفها الخشبية مغالبة الرياح الشديدة التي كانت تعوقها عن التقدم ، ولم يكن لرجالها قط من العدة في القتال إلا الشجاعة .
وسكنت الريح فجأة ، فوقفت السفن الخمس عن السير ، وانكمشت أشرعتها وكانت قد قاربت مدخل القرن الذهبي ، وتصاعدت صيحات الفرح من جانب الأتراك ، وانتهز «بالطه أوغلي» هذه الفرصة، فانقض بسفنه على السفن الخمس لإغراقها ، واستبسل العثمانيون في هجومهم الخاطف، واندفعوا اندفاع الريح العاتية قبل أن تهب عليهم الريح من جديد وتعوقهم عن الحركة، بل تشلهم تماما ، وحاولوا إحداث فجوات بين السفن الخمس لإغراقها فلم يوفقوا ، وحاولوا احراقها بالنار ولكن سرعان ماكان بحارتها يصبون عليها الماء فيطفئون النار . وعاود «بالطه أوغلي» الهجوم المرة بعد المرة حتى أصيبت احدى عينيه ، واحتدم القتال ، وأخذ الأتراك يقفزون الى السفن الخمس والجنود الايطاليون يطلقون عليهم قذائفهم ونيرانهم الاغريقية ، فيتساقطون الى البحر بكثرة . ولم تهن قوة

الاتراك رغم فداحة الخسائر بل كانوا يندفعون الى الامام في حماسة فائقة ، لتصرعهم القذائف الحجرية والنارية .

وكان السلطان محمد الثاني يقف على شاطىء غلطة ينظر الى هذا الصراع الدامي بعين لاتطرف ، وهو لايكاد يستقر فوق ظهر جواده ، فلما رأى مانزل بسفنه ورجاله من القتل والتمزق لم يتمالك نفسه ، فاندفع نحو البحر حتى غاص حصانه الى صدره . وكانت السفن على مرمى حجر منه ، وكان يلوح لبالطه أوغلي بأعلى صوته «ياقبطان ، ياقبطان» .

وغابت شمس ذلك اليوم ، وأرخى الليل سدوله ، والمعركة لاتزال حامية الوطيس ، وفجأة هبت الريح من الجنوب قوية ، فنشرت السفن الخمس أشرعتها ، ومرت من بين السفن التركية بخفة وقوة ، متجهة الى القرن الذهبي ، حيث انزلت السلسلة الضخمة ، وسرعان ماشدها الروم مرة أخرى ووصلت السفن اليهم سالمة وسلم بحارتها . وهكذا انتهت هذه المعركة البحرية والتي سميت «معركة غلطة البحرية» ــ تمييزاً لها عن المعركة التالية التي حدثت في القرن الذهبي نفسه بخسارة فادحة في السفن والمقاتلين البحارة الاتراك ، وخرج السلطان محمد الثاني من الماء ، وقد ابتلت أطراف ثيابه ، وعلاها ماء البحر الممزوج بالدم ، وعاد الى معسكره وهو مطرق في صمت مفيظ ، وهدوء يسبق العاصفة .

أما أهل القسطنطينية فقد غمرتهم موجة من الفرح الكبير بما

احرزوه من نصر ، وقويت عزيمتهم على الصمود ، ولاح لهم أنهم سيهزمون الاتراك ويردونهم عن الاسوار ، وأنها أيام وتنقشع الغمامة من فوق مدينتهم ، وأقاموا مواكب الافراح في المدينة ، ودقت الاجراس في الكنائس ، وظل الناس طوال الليل ينشدون الاناشيد المقدسة ، فيتردد صداها في معسكر الترك ، الذي كان يعد العدة لدحر عدوه مهما كلفه ذلك من جهد ورجال .

واستمرت المدفعية التركية تواصل اطلاق قذائفها ليلاً ونهاراً وتحدث دوياً هائلاً ، وتدك أسوار المدينة ، وفي نفس الوقت استمر السلطان محمد الثاني في رسم الخطط ، وابتكار الجديد منها مع أركان حربه ، وهداه فكره وخبرته العسكرية الى أنه لا بد من تحديد المعركة واجبار العدو على خوضها .

معركة القرن الذهبي البحرية

اخذ السلطان محمد الثاني يبحث عن وسيلة لادخال سفنه في القرن الذهبي نفسه ، من أجل السيطرة على هذا الميناء الاستراتيجي الهام ، وحصار القسطنطينية من أضعف جوانبها ، واضعاف الدفاع عن السور البري ، وبعثرة القوات الرومية وتشتيتها ، وكذلك تشديد المراقبة على سكان مدينة غلطه من الجنويين أصحابها والمسيطرين عليها ، ثم تسهيل المواصلات مع قاعدته في « روملي حصار » . وقد حاولت السفن العثمانية عدة مرات تحطيم السلسلة الضخمة القائمة عند مدخل الميناء فلم

توفق ، لقوتها ومناعتها واحكام الدفاع عنها . وكان أحد طرفي السلسلة يقع في شاطيء غلطة مدينة الجنويين ، وكانت العلاقة بينهم وبين السلطان العثماني علاقة سلام ممزوج بخوف من المستقبل المجهول ، اذا ما استولى العثمانيون على المدينة الخالدة ، وعلى ذلك فكانوا يميلون بعواطفهم نحو الروم ويتمنون لهم النصر. ولاحت للسلطان فكرة بارعة وهي نقل السفن من مرساها في بشكطاش الى القرن الذهبي ، وذلك بجرها على الطريق البري الواقع بين الميناءين مبتعدا عن حي غلطة خوفاً على سفنه من الجنويين ، وقد كانت المسافة بين الميناءين نحو ثلاثة أميال ، ولم تكن أرضا مسوطة سهلة ولكنها كانت وهاداً وتلالاً غير ممهدة .

ولم تستغرق دراسة الخطة سوى عدة ساعات من وقت السلطان ، فاطمأن قلبه اليها حتى لكأنها وحي الهمه ، وجمع الفاتح اركان حربه وعرض عليهم فكرته ، وحدد لهم مكان معركته القادمة ، فتلقى منهم كل تشجيع ، واعربوا عن اعجابهم بها . وبدأ تنفيذ الخطة ، وأمر السلطان محمد الثاني فمهدت الارض وسويت في ساعات قليلة وأتي بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم ، ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها ، وكان أصعب جزء في المشروع هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفعة ، الا انه بصفة عامة كانت السفن العثمانية صغيرة الحجم خفيفة الوزن .

تم هذا المشروع العسكري العظيم بسرعة ، وقبل ان يستطيع

البيزنطيون التدخل والعمل على اتلاف السفن ، واستطاع السلطان محمد الثاني في ٢٢ أبريل من نفس العام (١٤٥٣ م) أن ينجح في نقل سبعين سفينة من البوسفور الى القرن الذهبي . وضماناً لسلامة قواته البحرية ظلت المدفعية تطلق قذائفها طوال اليوم الحادي والعشرين فتقع في القرن الذهبي ، ولم تمكن السفن البيزنطية ولا القوات البرية من التدخل الفعلي أو حتى مجرد الرد على مصادر نيران العثمانيين ، وقد أصيبت من جراء ذلك احدى السفن البيزنطية فغرقت ، وجنحت بقية السفن الى اسوار غلطة واحتمت تحتها . وفي نفس الوقت حاولت السفن العثمانية الموجودة خارج الميناء تحطيم السلسلة ولكنها كانت صامدة منيعة . ومن ناحية اخرى ضاعفت المدفعية القائمة تجاه السور البري للقسطنطينية ضرباتها القوية ، وكان هدف هذه الضربات : هدم الاسوار ، واضعاف الروح المعنوية للروم ، وارهاقهم واقلاقهم .

كان هذا العمل عظيما بالنسبة للعصر الذي حدث فيه ، بل معجزة من المعجزات ، تجلى فيها سرعة التفكير وسرعة التنفيذ ، ولو ان فكرته ليست من مبتكرات ذهن السلطان محمد الثاني، فهي فكرة قديمة استخدمت في الماضي ، ولكن تطبيقها وتنفيذها بهذه السرعة وبهذه الدقة يدل بلا شك على عقلية ممتازة ، ومهارة فائقة ، وهمة عظيمة .

ونجحت خطة السلطان محمد الثاني في صرف انتباه الروم والجنويين عن خطته العظيمة ، ودهشوا دهشة كبرى عندما

علموا بها ، فما كان احد ليستطيع تصديق ما تم . لكن الواقع المشاهد جعلهم يذعنون لهذه الخطة الباهرة .

ولقد كان منظر هذه السفن باشرعتها المرفوعة تسير وسط الحقول كما لو كانت تمخر عباب البحر من أعجب المناظر واكثرها اثارة ودهشة . ويرجع الفضل كل الفضل في ذلك الى همة السلطان وموهبته ، والى مقدرة المهندسين الاتراك ، وكثرة الايدي العاملة التي قامت بتنفيذ ذلك المشروع الضخم بحماس ونشاط .

ولقد تم كل ذلك في ليلة واحدة ، واستيقظ أهل المدينة البائسة صباح يوم ٢٢ أبريل على تكبيرات الاتراك المدوية، وهتافاتهم المتصاعدة ، وأناشيدهم العالية ، وموسيقاهم العسكرية ، وأطلوا من فوق أسوارهم ، فرأوا تحت أعينهم سبعين سفينة عثمانية في الميناء برجالها ومعداتها ، وانتشرت بين أهل القسطنطينية نبوءة تقول : « ستسقط القسطنطينية عندما ترى سفن تمخر على اليابسة » .

وهكذا أصبحت السفن البيزنطية في توجس دائم وحذر لاينقطع، وظلت على هذه الحال الى آخر الحصار، واضطر الامبراطور قسطنطين إزاء هذا العمل العسكري الرائع أن يغير خططه ومواضع اجناده ، ويضع في هذا الجانب من السور عددا كبيرا من الجند لمراقبته ، ثم دعا جستنيان وبعض كبار رجال الجيش وأجتمع بهم وشاورهم في أمر السفن العثمانية الرابضة في ميناء القرن

الذهبي ، واجتمع رأي المؤتمرين على وجوب التخلص منها وذلك بمباغتتها في جوف الليل واحراقها .

واسند الامبراطور الى « جاكـومو كوكو Jacomo Coco » قيادة هذه الحملة التدميرية ، وأخذ يعد لذلك ، وتسرب الخبـر الى أهل غلطة ، فأبلغوه الى السلطان محمد الثاني ، وأطلعوه على دقائق الخطة وكيفية تنفيذها . كما طلبوا من الامبراطور البيزنطي والمؤتمرين تأجيل هذه العملية ليوم آخر ، حتى يمكنهم الاشتراك معهم فيها . وفي فجر يوم ٢٤ أبريل بعث الجنويون ـ سكان غلطة ـ مرة اخرى الى السلطان العثماني ينبئونه بما تم بين المؤتمريـن ، فبعث السلطان من فوره عددا من الجند ومعهم المدافع والعـدة اللازمة لاقتناص السفن واصطياد العدو .

وفي يوم ٢٨ أبريل غادرت السفن البيزنطية ميناء غلطـة للانقضاض على السفن التركية الراسية في القرن الذهبي ، ولكـن لم تكد السفن البيزنطية تقلع من مراسيها وترفع أشرعتها ، حتى لمح ضوء نار أشعلت فجأة في قمة برج غلطة ، كأنما كانت تنـذر الاتراك باقلاع السفن البيزنطية ، واقتربت السفن حتى كادت تلمس بعضها البعض ، واندفع القائد « كوكو » بسفينته حتى يكون له شرف السبق في تدمير السفن العثمانية ، ولم تكد تقترب مـن غرضها وهدفها حتى داهمتها قذيفة ضخمة ، أعقبتها قذيفة أخرى فلقتها فلقتين وغاصت في الماء . وظنت بقية السفن البيزنطية أن سفينة قائدهم « كوكو » مازالت تجدّ في سيرها ، وترمي بقذائفها

السفن التركية ـ وقد كان دوي المدافع وصوت الانفجارات يغطي جو المعركة ـ وتقدمت سفينة اخرى فداهمتها ايضا قذيفة فحرقتها وأصابتها بعطب كبير فهرع بحارتها وعادوا بها مسرعين وقد مالت الى الفرق ونجوا من موت محقق . واضطـرت بقيـة السفـن البيزنطية ـ إزاء ما حل بسفينة القيادة وزميلتها ـ الى الفـرار بحالة من الذعر شديدة وخافت من القذائف التي أخذت تلاحقها ، وقبض الاتراك على بعض بحارة السفينة الغارقة الذين لم يتمكنوا من الهرب فقتلوهم ، فانتقم الامبراطور قسطنطين لذلك ، وعلق على اسوار القسطنطينية رؤوس مائتين وستين من أسرى العثمانيين المسلمـين .

وجهز الامبراطور قسطنطين حملة ثانية لحرق السفن العثمانية بقيادة « جستنيان » ولكنها فشلت كما فشلت الحملة السابقة ، وتفوق الاسطول التركي على السفن الرومية العملاقة ، وكـاد جستنيان أن يقع في الاسر لولا أن اسرع بالفرار وهو لا يكاد يصدق ان ينجـو .

وكان لهذه الهزيمة التي مني بها الروم أثر سيىء في نفوس المحاصرين ، وحزن لذلك الامبراطور قسطنطين والقائد الجنوي جستنيان ، فقد فشلت الآمال وتحطمت ، وضاع جانب كبـير من الثقة بالنفس ، وظهرت بوادر الفشل والهزيمة على وجه كل من الامبراطور والقائد . وقام نزاع حاد بين البنادقة والجنويين في المدينة ، وصل الى حد الصدام المسلح واللكم بالايدي والبصق

في الوجوه ، وتحزب لكل من الفريقين بعض الاهالي بين مناصر ومعاد ، واتهم كل فريق الآخر بأنه سبب الفشل البحري ، وكادوا يقتتلون لولا تدخل الامبراطور قسطنطين في الوقت المناسب ، وقام الامبراطور بنصح زعماء الفريقين وناشدهم بالنصرانية التي يدينون بها أن يراعوا قبل كل شيء المصلحة المشتركة التي توجب عليهم التعاون لرد الخطر الكبير الذي يتهددهم جميعا .

واستمر الاتراك في دك أسوار المدينة تنفيذاً للخطة المرسومة والتي تقتضي نقبها ، واستمر البيزنطيون فيمحاولة اصلاح ماينهدم من السور ليل نهار ، ويحاولون جهدهم سد الثغرات وافراغ الخنادق من الانقاض . وازداد مركزهم ضعفا على ضعف ، فعددهم قليل وعملهم شاق مجهد ، علاوة على تناقصهم المستمر ، وكان عليهم الدفاع عن اسوار طويلة ضعيفة مهدمة امام مدفعية متفوقة وعدو لا يرحم . واستمر الحال على هذا النحو الى آخر اليومين الاولين من شهر مايو ـ أيار ـ سنة ١٤٥٣ م ، وبدأ يظهر للعيان جليا نقص المؤن داخل المدينة وخاصة الخبز والنبيذ .

وفي أثناء هذه الظروف القاسية أرسل الامبراطور قسطنطين سفينتين الى ايطاليا ، ليستغيث قيادة الاسطول البندقي ، وليطلب اليهم ان يهب قائد الاسطول البندقي في الارخبيل مسرعا لمعاونة القسطنطينية في محنتها القاسية ولكن هذه البعثة البحرية التيكانت ترجو ان يتحقق آخر أمل في انقاذ العاصمة البيزنطية علمت بأن الاسطول البندقي في الارخبيل قد غادر المنطقة ، وأيقنت ان لا فائدة

في الذهاب الى البندقية والتحدث مع رئيس جمهوريتها او قيادتها البحرية ، لذا رجعت خائبة حزينة .

الحـرب النفسـيـة

أمر السلطان محمد الثاني بالهجوم على الاسوار ، وأن يكون ذلك الهجوم مركزا وعنيفا ، ضمن خطة أعدها بنفسه أيضا لإضعاف العدو ، وكررت القوات العثمانية عملية الهجوم علىالاسوار ومحاولة تسلقها مرات عديدة بصورة بطولية بلغت غاية عظيمة من الشجاعة والتضحية والتفاني، وكان اكثر مايرعب جنود الامبراطور قسطنطين صيحاتهم وهي تشق عنان السماء وتقول : «الله اكبر .. الله أكبر» فتنزل عليهم كالصواعـق المدمـرة . وبدا للبطـريرك ولعظمـاء القسطنطينية ومعهم القائد الجنوي جون جستنياني ان يتـرك الامبراطور الشاب قسطنطين العاصمة ويذهب الى مكان آخـر يستطيع منه ادارة المعركة ، وتأليب الدول والامـارات النصرانية على العثمانيين ، علّهم يضطرون الى رفع الحصار عن العاصمة ، ووضع جستنيان احدى سفنه تحت تصرف الامبراطور ، ولكن قسطنطين رفض العمل بهذا الرأي ، وذكر للمجتمعين انه قـد أخذ على نفسه عهداً أن لا يتخلى عن عاصمته وشعبه في هـذه المحنة ، ولم يتمالك عينيه من البكاء ، فانهمرت منهما الدمـوع ، وبكى من حوله من المؤتمرين لبكائه ، وكان منظراً حزيناً مؤثـراً غاية التأثير .

وبعث الامبراطور قسطنطين رسلا من قبلـه الـى ايطاليـا

واسبانيا وفرنسا وسائر امارات الغرب ، يحملون رسائل الى زعمائها ، تبين اهم الخطر المحدق بالقسطنطينية ، وتحثهم على المبادرة الى ارسال المعونة والنجدة قبل فوات الاوان . وفيما هم فيه من ضيق وهم وتفكير فيما يعملون ، عمد السلطان محمد الثاني الى تشديد الحصار على القسطنطينية من ناحية السور القائم على ميناء القرن الذهبي ، ونصب المدافع التركية القوية على الهضاب الواقعة خلف غلطة ، واخذت هذه المدافع تطلق قذائفها الكثيفة ، ووصلت هذه القذائف الى الميناء ، واصابت احدى القذائف سفينة جنوية تجارية فأغرقتها في الحال ، فذعرت بقية السفن ولاذت بالفرار ، واتخذت من أسوار غلطة ملجأ لها ، واشتكى الجنويون الى السلطان من اغراق سفينتهم وهم على الحياد ، فوعدهم بالتعويض على سفينتهم .

وظلت السفن العثمانية تهجم على ميناء القرن الذهبي المرة تلو الاخرى وتحاول جاهدة كسر سلسلتها الحديدية ولكن دون فائدة ، كما ظل الهجوم العثماني البري في موجات خاطفة وسريعة الكرة تلو الاخرى . وكان السلطان محمد الثاني يرمي من توالي الهجمات واطلاق القذائف في البر والبحر دون انقطاع ليلا ونهارا الى انهاك قوى المحاصرين ، وعدم تمكينهم من ان ينالوا اي قسط من راحة وهدوء بال ، وهكذا اصبحت نفوسهم مرهقة مكدودة ، واعصابهم تعبة مجهودة تثور لاي سبب ، واصبح كل واحد منهم ينظر الى زميله ويقرأ في وجهه امارات الذل والهزيمة

والفشل ، وبدأوا يتحدثون علنا عن طرق النجاة والافلات بأرواحهم وما يتوقعونه من الاتراك اذا ما اقتحموا عليهم مدينتهم .

وعقد الامبراطور قسطنطين مؤتمرا ثانيا ، اقترح فيه أحد رجاله مباغتة الاتراك بهجوم شديد عنيف لفتح ثغرة توصلهم بالعالم الخارجي وبينما هم في مجلسهم يتدارسون هذا الاقتراح ، قطع عليهم اجتماعهم جندي رومي ، جاء يلهث ، واخبر الامبراطور قسطنطين بأن الاتراك قد شنوا هجوما شديدا مكثفا على وادي ليكوس ، فترك قسطنطين الاجتماع ، ووثب على فرسه ، وذهب الى مكان القتال – وكان لا يزال دائرا – فاستدعى الجند الاحتياطي ، ودفع بهم الى هذا الموقع ، واستمر القتال الى آخر الليل حتى انسحب الاتـراك .

وفي ١٤ مايو نقل السلطان محمد مدافعه من هضاب غلطة لتساعد المدفعية الموجودة عند باب القديس رومانوس ، وليضاعف ضربات مدافعه ويكثفها في أضعف نقطة في السور البري . وقد قاوم المدافعون – سواء الروم او اللاتين الذين وحّدهم الخطر – مقاومة باسلة ، والى جانب هذه الهجمات المتعاقبة التي قامت بها القوات العثمانية في البر والبحر ، كان السلطان محمد الثاني يفاجىء عدوه من حين لآخر بفن جديد من فنون القتال والحصار ، وحرب الاعصاب وبأساليب جديدة وطرق حديثة مبتكرة غير معروفة للعدو .

ففي ١٦ مايو سمع بعض المحاصرين من أهل القسطنطينية ضربات شديدة تحت الارض ، أخذت تقترب شيئا فشيئا منهم ،

وحمل الخبر الى الامبراطور واركان حربه ، ثم شاع في المدينـة كلها ، وخف اركان الحرب الى المكان المشار اليه ، وأدرك المهندسون البيزنطيون أن الاتراك يحفرون أنفاقا خارج السور ليدخلوا المدينة من تحت الارض . وقررت القيادة البيزنطية أن تحفر نفقا تجاه نفق الاتراك حتى اذا التقى النفقان وجد الاتراك انفسهم في أرض معركة حددها لهم عدوهم . وجدَّ العثمانيون في عملهم وهم لايعلمون شيئا مما يدبر لهم ، واستمروا يحفرون ، وما ان وصلوا الـى الفجـوة التي حفرها الروم حتى تملكهم الفـرح وظنـوا انهـم اهتـدوا الـى سـرداب خفـي يوصـل الـى المدينـة ، ولكن هذه الفرحة لم تطل فلم تكد أعينهم تلمح الضياء حتى صب الروم عليهم الغاز والنفط والمواد الملتهبة ، فمنهم من اختنـق واحترق ، ومنهم من ولّى وعاد أدراجه مبتعداً عن تلك المكيـدة المحكمة التي أعدتها القسطنطينية لهم .

لكن هذا الفشل لم يفت في عضد العثمانيين ، فعاودوا حفر انفاق أخرى ، وفي مواضع مختلفـة ، من المنطقـة الممتدة بـين « أكرى قپو » وشاطىء القرن الذهبي وكانت مكاناً صالحـاً للقيام بمثل هذا العمل ، وظلوا على ذلك حتى اواخر أيام الحصار . وقد أصاب أهل القسطنطينية من جراء ذلك خوف عظيم وفزع لا يوصف حتى صاروا يتوهمون أن أصوات أقدامهم وهم يمشون ان هي الا أصوات خفية لحفر يقوم به العثمانيون ، وكثيرا ما كان يخيل لهـم ان الارض ستنشق ويخرج منها الجند العثمانيون ويملأون المدينة، فكانوا يتلفتون يمنة ويسرة ، ويشيرون هنا وهناك في فزع ويقولون: « هذا تركي ... هذا تركي » ويجرون هرباً من أشباح يحسبونها

انها تطاردهم ، وكثيرا ما كان يحدث أن تتناقل العامة الاشاعة فتصبح وكأنها حقيقة واقعة رآها أحدهم بعيني رأسه ، بل وجرى هرباً من التركي صاحب العمامة الكبيرة ، والسروال الفضفاض ، والشارب الرهيب ، وهكذا داخل سكان القسطنطينية فزع شديد أذهب وعيهم ، حتى لكأنهم « سكارى وما هم بسكارى » فريق يجري ، وفريق يتأمل السماء ، ومجموعة تتفحص الارض ، والبعض يبحلق في وجوه البعض الآخر في عصبية زائدة وفشل ذريع .

ولم يكن عمل الاتراك هذا هيناً ، فان هذه الانفاق التي حفروها قد اودت بحياة كثير منهم ، فماتوا اختناقا واحتراقا في باطن الارض ، كما وقع الكثير منهم في بعض هذه المحاولات في اسر الروم ، فقطعت رؤوسهم وقذف بها الى معسكر السلطان . ورغم عدم النجاح الذي أصاب القوات العثمانية فقد أثارت هذه البسالة الفائقة والشجاعة النادرة إعجاب أهل القسطنطينية ، ودهشتهم وحيرتهم في كيفية مواجهة هذا الخطر الشديد .

ولم تهن عزيمة السلطان محمد الثاني بما ألم بقواته من أذى وفشل في بعض الاحيان ، بل زاد ذلك من تفاؤله وثقته بالنصر الذي سيحرزه بتأييد الله تعالى له ، وكان يبحث بين الحين والحين عن فكرة جديدة وخدعة فريدة يفاجىء بها عدوه . ولم يطل تفكيره ودراسته هذه المرة ايضا في ايجاد خطة جديدة فاجأ عدوه بها ، واعتبرت أحدث اختراع في عصره في فن حصار المدن

وتدمير القلاع ، فقد استيقظ أهل القسطنطينية في صباح ٢١ مايو، فاذا بهم يرون امامهم قلعة ضخمة شامخة من الخشب ، أكثر ارتفاعاً وعلواً من السور الخارجي ، وذات ثلاث طوابق ، قد كسيت كلها بالجلود السميكة المبللة بالماء لئلا تؤثر فيها النار والنبال ، وكان في كل طابق منها عدد من الجنود يحملون القذائف ومختلف أدوات القتال ، وتحمل في أسفلها التراب والاحجار والاخشاب لردم الخنادق ، وفي أعلاها سلالم من الحبال عصبت اطرافها بكلاليب ، يلقونها على اعلى السور فتنشب فيه ،ليمر عليها الجند العثمانية كالقنطرة ، بينما كان النبّالة يصوبون نبالهم ، وحملة الاقواس يوجهون سهامهم الى كل من يظهر رأسه من المدافعين فوق السور.

وقد هال أهل القسطنطينية أمر هذه القلعة الجبارة ، ووقف الامبراطور قسطنطين ومن معه من مساعديه وأركان حربه ينظرون اليها في عجب ودهشة وفزع ، ورأى المؤرخ البندقي « باربارو » صديق الامبراطور هذه القلعة الجبارة ، فقال : **« لو اجتمع جميع نصارى القسطنطينية على أن يصنعوا مثل هذه القلعة لما صنعوها في شهر ، وقد صنعها المسلمون الاتراك في ليلة واحدة ، بل في أقل من أربع ساعات »** .

واقيمت هذه القلعة الجبارة تجاه باب القديس رومانوس الذي يدافع عنه جستنيان ، وكان هذا القائد قد عجز عن اصلاح الثغرات الخارجية التي تحدثها المدافع التركية بسبب هذه القلعة الجبارة الواقفة بالمرصاد ، بل اخذت القذائف الحجرية

الضخمة تنهال من هذه القلعة نفسها فيما اخذت هي تقترب من السور ، وتسلق كثير من الاتراك السور بالسلالم المعدة لذلك ، وحمي القتال واشتد الخطر ، ولاح للامبراطور ان الهزيمة في هذه المعركة لا بد واقعة ، فقاتل هو ورجاله قتال المستميت ، وصاروا يقذفون القلعة بالمواد الملتهبة ، واكثروا من القذف عليها ، فما لبثت أن احترقت الجلود المبتلة التي تكسوها والتهمتها النيران . وانتهت المعركة وكانت نهايتها وبالا على العدو ، اذ تحطمت اربعة ابراج بما فيها من جند وعتاد ، والتهمتها النيران ، وامتلأ الخندق بالتراب والحجارة ، وانسحب العثمانيون مرة اخرى امام دفاع البيزنطيين الشديد . ويذكر المؤرخ التركي ضياء شاكر : « أن السلطان محمد الفاتح ما زاد على أن ابتسم عندما رأى قلعته الخشبية كومة من الرماد ، وقال لمهندسه مصلح الدين : **(غداً نصنع أربعا أخرى غيرها)** » .

وهكذا اصبح أهل القسطنطينية في هم دائم وقلق مستمر يتطلعون ذات اليمين وذات اليسار ، والى فوقهم وأسفل منهم ، لا يدرون من اين يدهمهم الخطر والهلاك ، واخذوا يهربون من واقعهم القاسي الى الاوهام والخيالات وأحلام اليقظة ، فجعل بعضهم يتصور ان جيشا مجرياً عظيماً بقيادة البطل « هونياد » قد زحف لتخليص القسطنطينية ، وتصور بعضهم الآخر ان أسطولاً عظيماً قادماً من البحر لانقاذهم . وظن الآخرون ان الملائكة ستغيثهم في آخر لحظة وتدمر اعداءهم ، بيد ان هذه الخيالات سرعان ما كانت

تنقشع وتتبدد ، ويشعر اصحابها أنها ما هي الا اضغاث أحلام أمام الوقائع الجارية المرة التي تراها اعينهم وتحسها ؛ فقد كانت مدافع الاتراك الضخمة تحدث دويا تنخلع له القلوب ، وتحدث تخريبا في أسوار المدينة لا طاقة لهم باصلاحه .

وركز العثمانيون ضرب المدافع البعيدة المدى والشديدة الانفجار في ثلاث نقاط : من ناحية باب أدرنة ، ومن ناحية باب القديس رومانوس، ومن ناحية الباب الثالث العسكري، ووضع سكان المدينة المحاصرة اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ، وعيل صبر الامبراطور ، فدعا الى عقد اجتماع في قصره ، وساد الحضور جو من الكآبة والالم ، وارتسمت على وجه الامبراطور امارات الجهد والاعياء ، ونصح وكيل البطريرك الامبراطور قسطنطين أن يغادر المدينة وينجو بنفسه ، ولكن الامبراطور أبى هذه النصيحة ، وأصر على البقاء في عاصمته واخذ يجهش بالبكاء ، واخذ المؤتمرون يبكون أيضا لبكاء امبراطورهم ، ثم أغمي عليه لشدة ما اصابه من الغم الشديد ، ولكثرة ما كان يسمع من بعيد من دوي القذائف التركية وهي تدك السور وصيحات الجنود الاتراك العالية وتهليلهم وتكبيرهم الذي كان يصم الآذان .

وفي ٢٦ مايو تجمعت السحب الكثيفة في سماء القسطنطينية وانعدمت الرؤية ، وتشاءم الشعب الرومي من ذلك ، وزاد من هلعهم واضطرابهم أن انقض نيزك من السماء على قبة كنيسة « سانت صوفيا » كاد يخطف الابصار ، فازداد الناس تشاؤما ، واشتد بهم الكرب ، وزاغت الابصار ، وبلغت القلوب الحناجر ،

وركب كبار الرهبان الى الامبراطور ، وافنوا له بمبارحة المدينة ، فقد ظهرت امارات تشير الى سقوطها في يد العدو بعد أن رفع الله عنها حمايته ورعايته . وسمع الامبراطور قسطنطين هذا القــول فغشي عليه وسقط الى الارض ، وعندما أفاق قال لمن حولــه : « اذا كانت هذه ارادة الله فأين نفر من غضبه » . وهكذا كانت حال القسطنطينية في أيامها الاخيرة ، وهي تدنو من نهايتها : كرب شديد ، وفزع عظيم ، وحيرة قاتلة ، واحلام واماني ما أبعدها عن الواقــع .

الهجــوم الاخــير العـــام

مضت سبعة أسابيع والحصار قائم والحرب دائرة ، ونتج عن ذلك تهدم أجزاء كثيرة من السور وأبراجه ، وامتلأ الخندق بالانقاض بعد أن كلت أيدي المدافعين عن رفعها . وأصبح أمام السلطان محمد الثاني ثلاثة أماكن للهجوم على المدينة واقتحامها : الاول ما بين « تقفور سراي » وباب ادرنة ، والثاني في وادي ليكوس عنــد باب القديس رومانوس ــ وهو أكثر الاماكن تهدما وانهيارا ــ والثالث بالقرب من الباب العسكري الثالث .

ولما تمكن السلطان محمد الثاني من خطته ، وبعد ان عرف ما عرف من حال المدينة وما فيه سكانها من كرب وضيق بعث برسالة الى الامبراطور قسطنطين مع رسول يــدعى « حمــزة اسفنديار أوغلو » ــ وكان بين السفير العثمانــي والامبراطــور البيزنطي صداقة متينة ومعرفة قديمة ــ دعاه فيها الى تسليم

المدينة قبل ان يشتد القتال ، وتراق الدماء ، وتنهب المدينة ، وتنتهك حرماتها ، ويقتل رجالها ، وتسبى نساؤها واطفالها وتباع في الاسواق ، واقترح السلطان على الامبراطور ان يخرج من المدينة هو واهله وحاشيته ومن يرغب ان يخرج معه من الشعب البيزنطي، وعرض عليه أن يكون حاكما للمورة كما كان من قبل . أما عمن يبقى من السكان فقد تعهد السلطان العثماني في رسالته بأن لا يلحق بهم أذى ، ومن شاء منهم الخروج فليخرج في امان ، ومن شاء البقاء فله ذلك ، وهو وممتلكاته في رعاية السلطان وحماية الدولة .

ونظراً لما كان بين السفير العثماني حمزة اسفنديار وبين الامبراطور قسطنطين من معرفة قديمة ، فقد صارح كل منهما الآخر ، ولم يكتم عن صاحبه سراً ، ونصح السفير حمزة الامبراطور بالتسليم واخبره بأنه لا قدرة له بمقاومة السلطان العثماني ، وأنها فرصة مناسبة لإنهاء الصدام بين الرومان والمسلمين ، والبدء بحياة يسودها حسن الجوار وحسن المعاملة ، وحمّل السلطان محمد الثاني سفيره اسفنديار أوغلو كلمة حاسمة ، وهي انه في حالة رفض الامبراطور هذا المسعى الاخير للصلح ، فسوف لا ينتظر من السلطان الا حربا فاصلة تسقطه عن عرشه ، وتحرمه من عاصمته ، وتلحق به وبرعيته أفدح الاضرار وأشد الاخطار .

واجتمع الامبراطور بأهل مشورته وعرض عليهم الامر الذي جاء به السفير العثماني وكشف لهم ما دار بينهما من حديث صريح،

وطلب منهم ان يعلنوا عن رأيهم ، فمال بعضهم الى التسليم ، وانهاء هذه الحرب التي قد ظهرت نتيجتها ، لكن جستنيان ونفرا من رجال الحرب أصروا على مواصلة القتال مهما تكن نتائجه .

عندئذ رد الامبراطور قسطنطين رسول السلطان وصديقه القديم دون نتيجة ايجابية ، وحمّله رسالة شفوية قال فيها : « انه يشكر الله اذ جنح السلطان الى السلم ، وانه يرضى ان يدفع له الجزية ، اما القسطنطينية فانه قد أقسم ان يدافع عنها الى آخر نفس في حياته ، فإما أن يحفظ عرشها او يدفن تحت اسوارها » . فلما بلغ السلطان العثماني مقالة قسطنطين قال : **« حسناً عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر » .**

وعمد السلطان محمد الثاني الى مضاعفة الضرب بالمدفعية الثقيلة والتركيز على المناطق التي حدد منها الهجوم العام ، وأمر بأن تستمر المدفعية في اطلاق قذائفها ولا تتوقف ، وفي نفس الوقت تمكن المهندسون الاتراك من صنع مدفع من طراز جديد يرمي قذيفته الى أعلا ، فتتخطى السور وتسقط في قلب المدينة ، كما هي الحال في مدافع الهاون التي تستعملها الجيوش الحديثة ، وأحدثت قذائف هذا المدفع تدميرا لبعض المناطق ، واشاعت الخوف والاضطراب والفوضى في سكان المدينة ، ووصلت قذائفها الى وسط العاصمة .

وعقد السلطان العثماني مجلسا حربيا في خيمته حضره وزراؤه وكبار قادة جيشه والشيوخ والعلماء للنظر في الموقف وما يجب اتخاذه ، وطلب السلطان من الحاضرين ان يعرب كل منهم عن رايه بصراحة وفي حرية تامة ، فأشار عليه بعضهم بالمبادرة الى الهجوم العام على المدينة فورا وقبل ان يتسرب اليأس الى نفوس الجند . واشار آخرون بآراء اخرى ، ثم خلص المؤتمرون الى رأيين :

الراي الاول وكان لخليل باشا وزير السلطان - وهو رجل مسن حذر وذو تجارب واسعة وكان وزيرا لوالد السلطان ، ثم وزيراً له ، ولم يكن السلطان الشاب متعلقاً به الا انه ابقاه في منصبه رجاء الا يعدم منه رأيا نافعا ، وكان البعض يتهمه بممالأة البيزنطيين - وخلاصة رأي خليل باشا : انه لا داعي لبذل هذا المجهود العنيف في اخذ هذه المدينة ، ولا داعي لكل هذه العمليات الحربية ، ولا مبرر لاراقة الدماء بهذا الشكل للاستيلاء على المدينة، فهي ستسقط من تلقاء نفسها ان عاجلاً أو آجلاً . وأشار بعد ذلك بعدم قبول أوروبا النصرانية بسقوط القسطنطينية وهي حصن عظيم من حصون النصرانية وركيزة من ركائزها ، فالبندقية سوف تتدخل بأسطولها ، وكذلك هونياد المجري واسكندر بك الالباني . ثم ان المدينة بعد ذلك حصينة واللاتين متفقون فيها مع الاغريق ، ولقد مضى وقت طويل وبذل مجهود كبير ولم تسقط المدينة . لذا فمن الخير ترك المدينة مؤقتاً حتى تزداد قوة العثمانيين وعندها سوف يسقطونها بكل سهولة .

وكان الراي الآخر لزغنوس باشا الالباني ، قائد الجنود غير النظامية ـ وهو رجل الباني الاصل ، اعتنق الاسلام وحسن إسلامه وجاهد في سبيل الله جهاداً مشكوراً ، وسما مركزه ، وكان قريب عهد بالشباب ، فهو ممتلىء قوة ونشاطاً وآمالاً ، وكان بينه وبين خليل باشا حقد دفين ومنافسة حادة ـ وتمثل زغنوس باشا بالاسكندر المقدوني الذي استطاع فتح آسيا بجيش صغير ، واستهزأ بالخطر القادم من الغرب ، فبين أن الدول الاوروبية النصرانية وخاصة الجمهوريات الايطالية منقسمة على نفسها ، وهي تضيع الوقت الثمين في الخصومات وعلى مسائل تافهة ، ووضح انه حتى لو استطاعت أوروبا أن تتفق فيما بعد ، فهي لن تقدر على إرسال قوة كبيرة لتخليص القسطنطينية في الوقت المناسب ، ولا يجب التفكير في ترك المدينة قبل أن يتم فتحها ، وايد ذلك الراي قادة الجيش الآخرون واركان حرب السلطان ، كما عضده العلماء بكل قوة وعلى راسهم الشيخ آق شمس الدين والشيخ احمد الكوراني خوجه (معلم) السلطان . وانهى السلطان مجلسه بعد أن درس نفسية رجاله وما يجيش في صدورهم ، وما ان وقف السلطان للانصراف من المجلس حتى اخبر جميع رجاله أن الهجوم قريب ، وسوف يأمر به في أقرب فرصة ممكنة . فعلا وجوههم البشر والفرح ، وقوي أملهم بالفتح القريب .

وفي ٢٧ مايو ـ أيار ـ أمر السلطان محمد الثاني جنوده بالصيام تطهيراً لنفوسهم وتقوية لعزائمهم وارادتهم ، وأمرهم بالإكثار من الصلاة وذكر الله والدعاء ، وزار بنفسه في ذلك اليوم سور

المدينة من بحر مرمرة بالقرب من القرن الذهبي وتفحص اجزاءه بدقة ، ورأى بعيني راسه ما احدثته المدافع من ثغرات ، وبحث عن المواضع الضعيفة في السور والتي هي في حاجة الى الدك والهدم ، وأمر السلطان قائد المدفعية بتكثيف الضرب والتركيز على السور عند وادي نهر ليكوس ، ونظم الفرق التي ستقوم بالهجوم العام . وعندما تأكد من تنفيذ خطته واوامره قام بزيارات مفاجئة الى كل اقسام جيشه ، واخذ يشجع الجنود ، ويثير فيهم روح التضحية ، ويقوي فيهم الثقة بالنفس ويؤملهم بالنصر ، وحتى يضمن عدم تدخل سكان حي غلطة من الجنويين طلب منهم الامتناع عن تقديم اية مساعدة للمدينة المحاصرة ، ووعدهم بالتعويض في حالة حدوث خسائر فيهم ، وارسل من نادي بين جنوده بأن المدينة ستترك لهم ثلاثة ايام يغنمون فيها ما قدروا عليه واقسم لهم بالله على ذلك .

وكان لهذا الوعد الاخير اثر قوي في نفوس الجنود ، فزادهم قوة على قوة ، وصح عزمهم على انتزاع النصر مهما كلف من ثمن . كما وأن السلطان اصدر اوامره لجميع جنده باحترام النظام ، وبالطاعة التامة ، وبألا يبرح أحد موقعه حتى يؤذن له ، واوعد من يخالف ذلك بالجزاء الشديد .

وفي مساء نفس اليوم (٢٧) أوقد الجنود العثمانيون النيران والمشاعل والقناديل وكذلك أشعلت الشموع على رؤوس الرماح حول معسكرهم ، فتصاعد الضوء الى السماء في وهج شديد ،

وتعالت صيحات الجنود العثمانيين المدوية ، ودقت طبولهم ونفخ في أبواقهم ، فظن أهل القسطنطينية لاول وهلة أن النار قد اندلعت في معسكر الاتراك واسطولهم ، وعزَوا ذلك الى مساعدة السماء لهم في محنتهم ، واشد ما كانت حسرتهم والمهم عندما رأوا الجنود والدراويش يتواثبون ويرقصون ويغنون ويكبرون ، وعند منتصف الليل اطفئت الانوار والمشاعل وغشي معسكر العثمانيين ظلام دامس وسكون شامل . وامضى السلطان محمد الثاني اليوم التالي في إكمال استعداداته الاخيرة ، فطاف بالسور مرة اخرى يزداد من التعرف عليه . كما قصد في نفس اليوم الى مرسى أسطوله في بشكتاش يصحبه أمير البحر حمزة باشا حتى يطلعه بنفسه على ما اتخذه من الاستعدادات ، وطلب اليه السلطان أن يشرك جميع الاسطول في الهجوم العام ، وأن تصطف القطع الحربية حول السور الواقع على بحر مرمرة حتى يتمكن الجنود من تسلقه بالحبال والسلالم ويقتحمون المدينة .

ولما أحس الامبراطور قسطنطين باقتراب الهجوم العام وشعر بدنو أجله وقرب سقوط ملكه وعرشه ، أقام ابتهالاً عاماً ، فقام موكب من رجال الدين الارثوذكس والكاثوليك يصحبهم النساء والاطفال والشيوخ ، وحملوا معهم صور العذراء والذخائر المقدسة، وطافوا في شوارع المدينة، وهم يبكون وينتحبون ويمزقون شعورهم ، وينشدون الاناشيد الدينية الحزينة ، ويضرعون الى الله أن يحميهم وينجيهم من الهلاك ، أو يلطف بهم عندما تقع البلية . ثم قصدوا

الى أسوار المدينة ، فصعد القسس والرهبان ومعهم صور العذراء الى الشرفات والاماكن المرتفعة ـ لا سيما عند باب القديس رومانوس ـ وسادهم جميعاً شيء من السكون والهدوء ، ثم خطب فيهم الامبراطور قسطنطين وحوله كبار رجال دولته ومستشاريه العسكريين وخاصته من القسس والرهبان ، فكانت آخر خطبة له ، حثهم فيها على الصبر والتضحية في سبيل الوطن ، ثم التفت الى كل من البنادقة والجنويين ، فشكرهم واثنى عليهم ، وحثهم على مواصلة الدفاع في سبيل الوطن ، والذود عن النصرانية التي وصفها بأنها في محنة كبيرة ، واعلن انه سيدافع عن شرف عرشه حتى الموت. وكانت خطبة رائعة حقاً ، بكى كل من كان حوله ، واغرورقت عينا الامبراطور بالدموع لتأثره الشديد ، وخيل للجميع ان نهاية الآلام قد اقتربت ، ورجوا التأييد من الله ، واملوا أن ينزل عقابه على الاتراك الذين يذيقون ابناءه واحباءه اشد العذاب .

وهكذا صرفت الآلام الشديدة اهل القسطنطينية الى آمال بعيدة عن التحقيق ، وجعلتهم يسعدون بعض الوقت في دفء هذه الآمال ، قبل ان يأتيهم اليوم المشؤوم الذين أصبح منهم قاب قوسين أو ادنى .

و في الساعة الواحدة من صباح يوم الثلاثاء ٢٩ مايو كان بدء الهجوم العام ، فسمعت فجأة في معسكر العثمانيين دقة ضخمة بالطبل التركي الشهير إيذاناً للجند بالتأهب والاستعداد ، ثم تتابعت الدقات في جميع أرجاء معسكرات الجنود العثمانيين ، ونفخ في الابواق إيذاناً ببدء القتال . وقد اثارت هذه الاصوات الفزع

والرعب في قلوب أهل القسطنطينية ، وهرع كثير منهم الى الكنائس، التي دقت أجراسها تشبهاً بالعثمانيين عندما نفخوا في الابواق ، وانطلق الجنود العثمانيون يهجمون على السور من البر والبحر طبقاً للخطة المرسومة دون خوف من الموت ، واندفعوا اندفاعة السيل الشديد بروح قوي ، وعزيمة شديدة ، ونفوس لا تعرف التردد والخوف .

وكان أشد الهجوم وأعنفه قد ركز في منطقة وادي « ليكوس » وقسم السلطان القائد المقاتلين الى اقسام ، تقدمت منها الفرقة الاولى وهي من جنود الروملي وكان بينهم عدد كبير من النصارى الكاثوليك من الالمان والمجرمين والاغريق والايطاليين ومعهم المتطوعون حديثو العهد بالجندية الى الامام ، حتى اذا صاروا على مرمى قوس من الاسوار توقفوا وأخذوا يمطرونه بالقذائف والسهام ، تساعدهم المدفعية لدك الاسوار وشل حركات جند العدو وعدم السماح له بحرية الحركة ، ورغم ذلك رد عليهم المدافعون بالمثل . وكانت الغاية من دفع هؤلاء الجند في الطليعة استنزاف دماء الاعداء وانهاكهم واستهلاك ذخيرتهم . ثم اندفعت فرقة ثانية فجأة تحت هذا الوابل من القذائف من النبال نحو السور ، واقاموا عليه مئات السلالم لتسلقه ، فأسرع المدافعون وقلبوا هذه السلالم بمن كان عليها ، وقذفوا وراءهم الصخور والجلاميد . ولم يمنع ذلك المهاجمين من معاودة التسلق مرة بعد اخرى في محاولات مستميتة لاقتحام السور وفتح ثغرة لدخول المدينة ، واستمر القتال على

هذه الصورة العنيفة المريرة نحو ساعتين ، وأمر السلطان محمد الثاني جنوده بالانسحاب ، وفي نفس الوقت أصدر أمراً دفع موجبه القسم الثاني من جنوده وهم جنود الاناضول الى الهجوم ومعاودة الاقتحام من هذه النقطة الحيوية . أما المدافعون فقد ظنوا لاول وهلة عند انسحاب المهاجمين أن العثمانيين قد دحروا ونكصوا على أعقابهم ، وعدلوا عن مواصلة القتال ، ولكنهم فوجئوا بهجوم أشد وطأة وعنفاً من الهجوم الاول .

ولاح نور الصباح ، واصبحت الرؤية واضحة تماماً ، واندفع الجنود الاتراك يهجمون على السور وقد لبسوا الدروع ، فأدرك قسطنطين خطر الموقف ، وشعر بانهيار خطوط دفاعاته امام ضغط لعثمانيين ، ونشط جستنيان وجنوده المدرعون المتمرسون ، وقاوموا هذا الهجوم العنيف مقاومة مستميتة عنيفة ، وصبوا قذائفهم ونيرانهم الحامية على المهاجمين ، وقلبوا السلالم التي تمكن العثمانيون من تثبيتها على السور ، وغمرت القذائف والسهام العثمانيين بغير هوادة ، وتهاووا صرعى على الارض . ولكن ذلك لم يزد الاتراك إلاّ حماساً وشدة ، وامر السلطان بسحب جنوده واستعمال المدفعية مرة أخرى ، فنصبت في اقرب مكان من السور واخذت تطلق قذائفها على جستنيان وجنوده ، وزحف الجنود الاتراك تحت ستار من الدخان الكثيف ، وهجموا مرة اخرى ، ولكن جستنيان وجنوده المدرعة ثبتوا لهذا الهجوم أيضا .

وبينما كان القتال على أشده عند السور البري ، كان هناك

قتال آخر لا يقل عنفاً وشدة وضراوة في البحر ، فقد أخذت السفن العثمانية بقيادة أمير البحر حمزة باشا في بحر مرمـرة ، وكـذا السفن العثمانية الراسية في القرن الذهبي أمكنتها مقابل السور ، وأخذ الجنود البيزنطيون يطلقون عليهم القذائف والسهام ، ورغم كثافة نيران الروم فقد قام فريق من الجند العثمانيين بتسلق السور بالسلالم والحبال بعد تثبيتها بالخطاطيف والكلاليب ، والتحموا في صراع عنيف مرير مع المدافعين ، الذين هبوا الى قذف السلالم الى البحـر ، واطلاق النـيران والسهـام والزيت المغلـي على العثمانيـين .

وقد أهاج هذا الهجوم الشديد كلا الطرفين ، وزادهم ثباتا على القتال والنزال ، واستعملت في هذه الحرب الاساليب القاسية جدا ، ولم يتورع كلا الفريقين عن ايقاع اشد الاضرار بالآخر ، وكان السلطان محمد الثاني يقذف بجنوده في كل مرة حتى يحقق غرضه، ويصل الى هدفه وهو انهيار حالة العدو المعنوية .

أما في الشمال فقد جمع « قرجه بك » قواته وشن هجوماً عنيفاً على العدو ، حتى استطاع ان يزحزح المدافعين عن أماكنهم ، ووثب جنوده في التو على أنقاض السور المتراكمة ، وتمكن أحـد المهاجمين الاتراك من قتل قائد المنطقة بعد مبارزة عنيفة شطره نصفين ، وبمقتله انهارت مقاومة فرقته ومعاونيهم في الدفاع عـن

هذا الجزء من المدينة ، وولوا هاربين ، وفي الحال تدفقت جموع العثمانيين نحو المدينة من هذه الناحية . وعند ذلك دفع السلطان بفرق الانكشارية ، الذين لم يشتركوا في القتال بعد ، فتقدموا في وادي ليكوس كالاسود الضارية ، ليقابلوا رجالاً قد أنهكهم التعب والجوع واثخنتهم الجراح ، تقدموا بصياحهم الداوي ، وتكبيراتهم القوية ، وكانوا يطلقونها بملء أفواههم : « الله أكبر ، الله أكبر » . واقتربوا من الاسوار الداخلية ، وقتلوا من وجدوا من المدافعين ، وداس بعضهم بعضاً من شدة الحماس وضراوة الاندفاع ، ووصل بعض الانكشارية الى داخل المدينة ، وارتقوا الاسوار من الداخل، وأزالوا علم الامبراطور وعلم البندقية ورفعوا العلم العثماني . وفي هذه الاثناء جرح القائد جستنيان جرحاً بليغاً ، فحمل الى مكان بعيد ، وجعل يجود بنفسه ثم نقل الى سفينته الراسية وراء السلسلة في القرن الذهبي ، ومن هناك نقل الى جزيرة « خيوس » حيث قضى نحبه ، وقيل إنه مات قبل وصوله اليها .

ولما رأى الامبراطور قسطنطين الاعلام العثمانية ترفرف داخل المدينة توجه شمالاً ولا يعرف أحد مقصده : هل يريد الاستمرار في القتال أو الهرب ، لكنه ووجه بجموع العثمانيين تتدفق الى المدينة كالسيل الجارف من ذلك المكان ، ونزل عن حصانه ، وخلع ملابسه القيصرية ، وسل سيفه واخذ يضرب به ذات اليمين وذات الشمال حتى كلّت يده ، وأصابه أحد الجنود الاتراك بضربة سيف قاتلة ، فخرّ صريعاً . ولم يقف شيء بعد ذلك في وجه الاتراك ،

فقد فتحت لهم جميع الابواب والمنافذ حتى السرية منها بعد أن فر حماتها ، وذهبوا يلتمسون النجاة لانفسهم ، وتزاحم الناس يدفع بعضهم بعضا ، والكل يطلب النجاة لنفسه، وتسمّر كثير منهم مكانه مستسلما للعثمانيين راكعا متذللا متضرعا ، سائلا الابقاء على حياته .

أما عن القتال البحري فجرى كعادته ، ولم يستطيع أي من الفريقين دحر الآخر ، لكن عندما رأى المدافعون الاعلام العثمانية فوق الابراج القائمة على السور البري أصيبوا بذهول وخيبة أمل ، وانهارت دفاعاتهم ، فمنهم من استسلم بمركبه ، ومنهم من فر بسفينته بعيداً عن ميدان القتال يطلب النجاة ويتلمس طريقاً للخلاص .

وهكذا وبعد حصار دام واحداً وخمسين يوما ، كانت كلها معارك وصراع عنيف ، سقطت المدينة الحصينة التي استعصت على الفاتحين ، على يد بطل شاب ، له من العمر ثلاث وعشرون سنة ، وتحلى بمواهب فذة في القيادة وادارة الحروب وشن المعارك ، وحقق هذا البطل للمسلمين أملا غاليا ظل يراودهم ثمانية قرون ، وحاولوا تحقيقه مراراً فلم يفلحوا ، فلقد كان القدر قد ادخر هذا الشرف لهذا البطل ، ولقد كانت الكلمة النبوية القديمة مدخرة له : « لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الامير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش » .

الفصل الرابع

القسطنطينية
تحت أقدام الجنود العثمانيين

- حالة المدينة أثناء تدفق الجنود العثمانية .
- دخول السلطان محمد الثاني مدينة القسطنطينية وتسميته بالفاتـــح .
- صدى استيلاء العثمانيين على القسطنطينية في العالم .

القسطنطينية
تحت أقدام الجنود العثمانيين

حالة المدينة أثناء تدفق الجنود العثمانيين

لقد تملك الفزع والرعب بادىء الامر سكان القسطنطينية ، فقد قتل الامبراطور قسطنطين وجمع كبير من الجنود الذين التفوا حوله ، اما عظماء المدينة وأشرافها وكبراؤها فمنهم من لقي حتفه في المعركة ، ومنهم من هرب فاراً بنجلده ، ومنهم من مات كمداً ، ومنهم من انتحر ، والكثير منهم عاش ينتظر المصير المجهول ذليلاً مهموماً . وحاول عدد كبير من سكان المدينة بمختلف اعمارهم الهرب الى الميناء ، يدفعون بعضهم بعضا ، وقتل أثناء ذلك العدد الوفير – خاصة من النساء والاطفال – ولم تجد صيحاتهم واستغاثاتهم شيئا ، فكل واحد مشغول بنفسه ، يفكر في مستقبله وفي الحفاظ على حياته ، وقد ترك كل فرد من اسرته ينجو بمهارته من القتل . والتجأ جمع غفير الى كنيسة سانت صوفيا وغيرها من الكنائس ، معتقدين انهم وجدوا الامان ، وتوهموا أن القديسين سيحمونهم لا محالة من اعتداء العثمانيين عليهم ، وان الملائكة ستنزل من السماء وتجعل من العدو تراباً ، واغلقوا ابواب الكنائس ، وتوسلوا الى الله بيسوع وامه ان يحفظ عليهم حياتهم ، فقد كانوا يعتقدون أن العثمانيين قوم غلاظ الاكباد ، قساة أجلاف ، لذا فسوف يمعنون فيهم تقتيلا وتذبيحا بغير رحمة .

وربما كان لهؤلاء عذرهم في هذا الاعتقاد ، فهم يعرفون سيرة الفاتحين مع الشعوب المغلوبة ، وهم يذكرون كيف دخل الصليبيون مدينتهم قبل ذلك الوقت بقرنين ونصف ، وما ارتكبوه فيها من القتل والتدمير وهتك الاعراض ، وما قاموا به من أبشع الاعمال وأفظعها ، التي كانت آثارها لا تزال ماثلة في القسطنطينية الى اليوم يتناقلها الابناء عن الآباء .

ودخل الجنود العثمانيون المدينة بعد حرب ضروس وقتال مرير وضحايا عديدة وشهداء أبرار ، وسيطروا على الموقف وحطموا المقاومة والجيوب التي كانت لا تزال قائمة . ولم يكن الامر هيناً بالنسبة للعثمانيين ، فإن كثيراً من أهالي المدينة والجنود الاروام الذين تركوا مراكز دفاعاتهم في الاسوار قد صعدوا الى أسطح المنازل ، وأخذوا يقذفون منها العثمانيين بالاحجار الضخمة وقطع الحديد المحمية والاخشاب المشتعلة ، متحصنين في أماكنهم ، مستميتين في القتال والنزال . ولم يجد الاتراك بدأ من مقاتلتهم والقضاء عليهم ، وأصبحت المدينة بذلك غنيمة للفاتحين ، واستمر القتال طيلة اليوم الاول ، واستبيحت المدينة ثلاثة أيام استولى فيها الجنود العثمانيون على مغانم كثيرة وسبوا الكثير من الرجال والنساء والولدان .

وكان السلطان محمد الفاتح أثناء ذلك واقفاً على الارض أو ممتطياً جواده ، ينظر الى جنوده وهم يدخلون من كل صوب المدينة التي استعصت على الفاتحين من قبله ، والى اعلامه وهي

ترفرف بأيديهم وتخترق الحواجز المنيعة داخلة الى قلب المدينة ، واقبل رجال الفاتح ووجوههم مضيئة فرحة ، عليها امارات البشر والبهجة والسعادة ، وجعلوا يهنئون السلطان بالنصر والفتح ، ولم تزد اجابة الفاتح عن قوله : **« حمداً لله . ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ، ولشعبي الفخر والشكر »** .

دخول الفاتح مدينة القسطنطينية

وفي الظهر من اليوم الرابع توجه السلطان الفاتح الى القسطنطينية على ظهر جواده في موكب حافل ، يتبعه وزراؤه وقواده وجنوده البواسل ، ودخلها من باب القديس رومانوس . وقد أعجبته المدينة باثارها الرائعة ومبانيها الفخمة ، وكانت هتافات جنوده تدوي في الجو : « ما شاء الله ، ما شاء الله ، ليحيى سلطاننا ، ليحيى سلطاننا » . ولما بلغ الفاتح منتصف المدينة توقف عن السير ، وخطب فيمن حوله ، وقرأ عليهم بلغة عربية فصحى البشارة النبوية الكريمة : « لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الامير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش » وهنأهم بالنصر ، وأوصاهم بالثبات وعدم الغرور ، والتمسك بالفضيلة وحسن المعاملة ، والرافة بسكان المدينة ، وأمرهم بالكف عن القتل والسلب والنهب .

وسار بموكبه المظفّر في الشارع المؤدي الى كنيسة سانت صوفيا ، وترجّل أمام الباب ، وانحنى ووضع حفنة من التراب على رأسه خضوعا لله وشكراً له .

ولما اقترب من الباب وصل الى مسامعه أصوات خافتة حزينة هي أصوات الصلوات والدعوات التي كانت تقام فيهـا ، وقصد الفاتح الى أحد ابواب الكنيسة وكان باباً منيعاً حصيناً فوجـده مغلقاً ، فلما علم الراهب راعي الكنيسة بمقدم السلطان ورفاقه أمر بفتح الباب على مصراعيه ، وانتاب الناس خوف عظيم لحضور سلطان العثمانيين بعمامته الاسلامية الكبيرة ، وتوجسوا شراً ، وانقطعوا عما كانوا فيه من صلاة ، وساد بينهم صمت رهيب وكأنما على رؤوسهم الطير . وتوجه السلطان الفاتح الـى المذبح حيث قابله رجال الكنيسة ، وكانوا مختبئين خلفه وتحت المناضد وخلف الستائر ، فأحسن السلطان استقبالهم ، وأكـد حمايته ورعايته لهم ، وامر الراهب أن تستمر الصلاة كما كانت من قبل ، وان يبقى كل انسان في مكانه دون أن يجزع . وسجد الفاتح مرة أخرى يشكر الله ويحمده ، ثم طلب من الراهب أن يصرف المصلين ويأمرهم بالعودة الى منازلهم آمنين على أموالهم وانفسهم وأعراضهم ، ونزل هذا الكلام برداً وسلاماً على هؤلاء الناس ، وظهرت عـلى وجوههم الراحة والاطمئنان ، ثم طلب السلطان الفاتح من أحـد المؤذنين أن يؤذن للصلاة ، فصعد المذبح واذن للصلاة لاول مرة في هذه الكنيسة العظيمة ذات التاريخ العريق ، فأضبحت « سانت صوفيا » مسجداً جامعاً من أعظم مساجد الاسلام ، وما زال حتى اليوم يعرف بجامع « أيا صوفيا » ، ثم أعلن السلطان أن أول صلاة جمعة قادمة ستقام فيه ، فأخذ العمال في اعداده لذلك ، فرفعت الصلبان وصور القديسين والقديسات ، وما كان عـلى

الحائط غطي بطبقة من الكلس ، واعد اعداداً لائقاً لاداء فريضة الجمعة .

ثم توجه السلطان الفاتح الى قصر الامبراطور ، فوجد أن الخراب قد دب فيه ، وسأل عن قسطنطين وجستنيان ونوتاراس وعن مصيرهم ، ولم يأته منهم غير « نوتاراس » الذي كان يقوم بالإدارة المدنية في القسطنطينية أثناء الحصار . وقد احسن السلطان العثماني لقاءه ، وطلب منه أن يخبره عن قسطنطين ، فأجاب انه لا يعلم عنه شيئا ، فسأله عن مصير جستنيان فأجاب نوتاراس بأن كل ما يعلمه عنه أنه عقب اصابته بجرح قاتل أعجزه عن القتال والنزال نقل الى سفينة راسية في الميناء بالقرن الذهبي ، وطمأن السلطان نوتاراس هذا على نفسه وماله ، وصرفه الى بيته للاطمئنان على أسرته ورعايتها . ومن ناحية ثانية أرسل السلطان محمد الفاتح من فوره بعض رجاله الى « باب القديس رومانوس » للبحث عن الامبراطور ، كما ارسل آخرين الى الميناء للبحث عن السفينة التي يرقد فيها جستنيان .

وجاء في هذه الآونة التي اصدر فيها السلطان تعليماته بالبحث عن قادة بيزنطة العسكريين جندي صربي يحمل رأس قسطنطين ملطخة بالدماء ومعفرة في التراب ، وقد ظن انه سيدخل السرور على قلب السلطان التركي ، ونظر الفاتح الى الراس وهي تتدحرج تحت قدميه ، وسأل نوتاراس ان كان حقاً هو رأس قسطنطين ، فأجاب نعم وهو يبكي ، فظهر الغضب على وجه

السلطان ، وعزّ عليه أن يمثل بالامبراطور على هذا النحو ، وأمر أن يحتفل بدفنه بما يليق بمكانته .

وسلك السلطان الفاتح مع أهل القسطنطينية سياسة التسامح والرأفة ، وأمر جنوده بحسن معاملة من في أيديهم من الاسرى والرفق بهم ، وفدى عدداً كبيراً من الاسرى بماله الخاص خاصة أمراء اليونان ورجال الدين ، واجتمع السلطان مع الاساقفة وهدأ من روعهم ، وطمأنهم على المحافظة على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم ، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد لهم ، فاجتمع الاساقفة وانتخبوا « جناديوس » بطريركاً ، وتوجه هذا بعد انتخابه في موكب حافل من الاساقفة الى قصر السلطان ، فاستقبله الفاتح بحفاوة بالغة ، وكرمه أيما تكريم ورحب به وتناول معه الطعام ، وتحدث معه في موضوعات شتى ، دينية وسياسية واجتماعية ، خرج منها البطريرك « جناديوس » وقد تغيرت فكرته تماما عن سلطان العثمانيين والاتراك بل والمسلمين عامة ، وشعر انه أمام سلطان مثقف ، صاحب رسالة وعقيدة دينية راسخة ، وانسانية رفيعة ، ورجولة مكتملة .

ولما همَّ البطريرك بالانصراف نهض له الفاتح ورافقه الى باب القصر ، وأعانه على ركوب الجواد المطهَّم الذي أعده له ، وأمر وزراءه ورجال دولته أن يصحبوه الى مقره البطريركي ، وأمر بجعله في مرتبة الوزراء ، وقد تأثر البطريرك لما لقيه من السلطان محمد الفاتح من بالغ الحفاوة وطيب المعشر وحسن الخلق،

ولم يكن الروم انفسهم أقل تأثراً ودهشة من بطريركهم ، فقد كانوا يتصورون الامر خلاف ذلك ، وان القتل العام لا بد لاحقهم . ولم تمض بضعة أيام على فتح القسطنطينية حتى ساد الامن والسكينة ربوع المدينة ، واستأنف الناس حياتهم المدنية العادية في اطمئنان وسلام .

اما حي « غلطة » ، فقد ارسل السلطان محمد الفاتح القائد « زغنوس باشا » اليه ، فأمّن أهله باسم السلطان العثماني وهدأ روعهم ، غير ان بعض المغامرين تسللوا بالليل وفروا على سفنهم ومعهم نساؤهم واولادهم وخدمهم وأموالهم ، فغضب السلطان لذلك ، وذكر للوفد الجنوي من سكان غلطة انه كان على علم تام بأعمال شعب غلطة ومعاونتهم لاهل القسطنطينية اثناء الحصار ، فطلبوا منه الصفح والامان ، ورجوه أن يسامحهم ويعفو عن زلاتهم، وأخيرا عفا عنهم السلطان . وأصدر « زغنوس باشا » فرمانا باسم السلطان ضمن لاهل غلطة حرية العبادة وبقاء كنائسهم كما هي عليه ، لا تمس ولهم ادارتها الداخلية ، ولهم أن ينتخبوا حاكمهم بأنفسهم ، وضمن لهم حرية التجارة في جميع اجزاء المملكة العثمانية براً وبحراً ، على أن يدفعوا جزية سنوية ، وتهدم أسوار مدينتهم . وبعد خمسة أيام من اصدار فرمان السلطان العثماني بشأن مدينة غلطة الجنوية قام الفاتح بزيارة « غلطة » فنزع عنها جميع الوسائل التي قد تغريها بالعصيان ، فجردها من السلاح ، وهدم أسوارها من ناحية البر لتكون مفتوحة أمام الجيوش

العثمانية ، وابقى على أسوارها من ناحية البحر ، كما طلب الفاتح من مهاجري غلطة العودة الى مدينتهم ، وأمّنهم على حياتهم ، وذلك في مدة ثلاثة اشهر ، والا اصبحت ملكياتهم ومتاجرهم وأمتعتهم ملكا للدولة .

صدى استيلاء العثمانيين على القسطنطينية في العالم

كان لسقوط مدينة القسطنطينية في يد الاتراك المسلمين الآسيويين دوي عظيم في جميع انحاء العالم بمختلف ملله ونحله ، ولغاته وأشكاله والوانه ، ولكن اختلف وقعه وتأثيره في الغرب النصراني عن وقعه وتأثيره في الشرق الاسلامي .

أما الغرب النصراني ، فقد صعقه نبأ هذا الحادث ، وانتاب النصارى شعور بالفزع والالم والخزي ، وتجسّم لهم خطر المسلمين وتهديدهم لاوروبا النصرانية كبيرا ، واخذ الناس يستنفرون بعضهم البعض عن طريق الشعر والادب والمسرحيات الجادة والهزلية ، وعن طريق عقد الاجتماعات بين الامراء والملوك حتى انبعث فيهم نوع من الروح الصليبية القديمة ، وتداعى الناس الى طرح الخلافات والحزازات والى الاتحاد ضد العثمانيين المسلمين . وكان البابا نيقولا الخامس أشد الناس تأثرا بنبأ سقوط القسطنطينية ، وعمل جهده وصرف وقته في توحيد الدول الايطالية وتأليبها على قتال العثمانيين ، وراس مؤتمرا عقد في روما أعلنت فيه الدول المشتركة عن عزمها على التعاون فيما بينها وتوجيه جميع جهودها وقوتها ضد العدو المشترك . وكاد هذا

الحلف الصليبي أن يتم لولا أن البابا اشتد عليه المرض اثر الصدمة العنيفة الناشئة عن سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين ، ونال منه الحزن والهم شيئا عظيما ، فمات كمداً في ٢٥ مارس سنة ١٤٥٥ م .

وكان من أعظم الامراء والنبلاء النصارى تأثراً باستيلاء الاتراك المسلمين على القسطنطينية الامير فيليب الطيب دوق بورجونديا ، فلما جاء رسول البابا اليه عام ١٤٥٣ م يستحثه على قتال السلطان العثماني التهب حماساً وحمية ، واستنفر جميع النصارى الى هذا القتال ، وذهب بنفسه الى الامبراطور فردريك الثالث امبراطور المانيا فوعده خيرا . كما بعث فردريك بدوره الى ملك فرنسا « شارل السابع » ولم يكن شارل في حاجة الى مثل هذه الاثارة والتحريض ، فقد كان يتحفز حماسا وشوقا الى قتال الاتراك ، ولكن كان عليه اذ ذاك أن يواجه عدوا آخر أكثر قربا وهم الانجليز ، فراى أن ينهي أمره معهم أولا ، ثم يتفرغ بعد ذلك لقتال الاتراك العثمانيين ، وقصر معاونته في تقوية تحصينات جزيرة رودس . ولم يكتف الدوق « فيليب الطيب » بمحادثة الملوك والامراء والنبلاء النصارى ، لكنه أثار الشعب النصراني أيضا ضد الاتراك ، فأقام تمثيلية في مدينة « ليل Lille » لاستثارة الحمية والحماس ، دعا اليها نبلاء وعظماء قومه ، وعرض في هذه الحفلة منظرا يمثل سقوط القسطنطينية واستغاثتها بحماة النصرانية ، وأعلن الدوق بعد انتهاء الحفل أنه سيسير بنفسه الى

قتال الاتراك العثمانيين ، وحـذا حـذوه البارونـات والفرسان والمتحمسون والمتعصبون للنصرانية ؛ وهكذا تحولت فكرة القتـال ضد العثمانيين الى قتال ضد المسلمين عامة ، وغزو بلادهم ، امعانا في الانتقام وأخذا بثأر القسطنطينية .

أما النصارى الذين كانوا يجاورون السلطان محمد الفاتـح أو يتاخمون حدوده في طرابيزون وآماسيا وبلاد المورة وغـيرهم ، فقد اضطرهم قربهم من الدولة العثمانية ان يكتموا شعورهـم الحقيقي ، فتظاهروا بالفرح وبعثوا وفودهم الى السلطان في ادرنه لتهنئته على انتصاره العظيم ، وكان في مقدمة هؤلاء المهنئين رسل حاكمي المورة أخوي الامبراطور قسطنطين .

إزاء ذلك لم يجد السلطان محمد الثاني بدأ من مواصلـة الحرب إزاء الثورة العارمة والسخط الشديد الذى اشتعل ضده في أوروبا ، والذي أصبحت معه أوروبا النصرانية كمرجل كبير يغلي ويفور ، أو كمعسكر يموج بالحركة والنشاط ، واتخذ السلطان الفاتح من القسطنطينية قاعدة لدولته ومنطلقا لجيوشه لتدمير أعدائه ، خاصة بعد أن وضع الفاتح يده ليس على مفتاح أوروبـا الشرقية فحسب ، بل على مفتاح العالم القديم برمته . وتزعمت البابوية في روما نضال النصارى ضد الاتراك العثمانيين ولم تخلد الى السكون ، فهي تخشى اعتداء الاتراك على البلاد التي تخضع للنفوذ البابوي الديني ويحدث الصدام الذي لا تخفى نتائجه . واخيرا تحولت الفكرة الصليبية ـ التي أثارتها البابوية وسخرت نفوذهـا

الديني والروحي لها ولم تستطع تحقيقها ـ من محاولة انتزاع الاراضي المقدسة من المسلمين الى صراع دفاعي الفرض منه انقاذ أوروبا الكاثوليكية من الاتراك .

وحاول البابا بيوس الثاني بكل ما أوتي من مقدرة خطابية ومهارة سياسية تأييد الفكرة الصليبية ، لكن الشعوب النصرانية كانت أضعف من أن تقوم بتنفيذ مثل هذا المشروع بالرغم من الخطر الذي يهدد معظمها ، واستعدت بعض الدول لتحقيق فكرة البابا ، ولكن لما جاء وقت الجد اعتذرت دول أوروبا بمتاعبها الداخلية ومشاغلها وافلاسها ، فلقد انهكت حرب المائة عام انكلترا وفرنسا ، وفوق ذلك فانكلترا منهمكة في مشاغلها الدستورية وحروبها الاهلية ، ولم تكن حالة فرنسا الداخلية تسمح باشعال نار حرب مع الاتراك ، فلقد اضعفتها المنازعات الداخلية ايضا . أما اسبانيا فهي لا تزال تناضل في سبيل وحدتها القومية ضد المسلمين . أما الجمهوريات الايطالية فكانت تهتم بتوطيد علاقاتها بالدولة العثمانية مكرهة وحباً في المال ، لا تقربا من العثمانيين المسلمين ، فكانت تركز على ذلك التقارب أكثر من أهتمامها بالدخول مع العثمانيين في حرب صليبية وتركيز جهدها في مشاكسات معروفة نتائجها . وانتهى مشروع الحملة الصليبية بموت صاحبها البابا ، وترك للمجر والبندقية منفردين مهمة مواجهة الاتراك والدفاع عن حدود النصرانية .

ورغم اتفاق الملكيات الاوروبية والجمهوريات الايطالية في «لودي» على الاتحاد ضد الاتراك في سنة ١٤٥٤ م ، لكن ذلك الاتفاق لـم يقف أمام تجارب الزمن ، فلقد انفصلت البندقية عن الاتحـاد وعقدت معاهدة صداقة وحسن جوار مع العثمانيين رعاية لمصالحها في الشرق الادنى ، واهتم الكاثوليك وعلى راسهم - البابا باضطهاد المنشقين على الكنيسة والخروج عن الصف النصراني أكثر مـن اهتمامهم بمحاربة العثمانيين المسلمين .

واستطاعت الجيوش العثمانية هزيمة المجر التي تزعمت قيادة الحملة الصليبية ، وتولى هونياد المجري قيادتها ، ونتج عن ذلك أن وطدت الدولة العثمانية أقدامها في بلاد الصرب واليونان والافلاق والقرم والجزر الرئيسية في الارخبيل . وقد تم ذلك في فترة قصيرة ، حيث داهمهم السلطان الفاتح ، وشتت شملهم ، واخذهم اخذاً عظيماً . وعندما استولى على البانيا عبرت جيوشه البحر ونزلت في « أوترانتو » على الشاطىء الايطالي ، ولولا وفاة السلطان الفاتح في هذه الآونة ، وقلة خبرة القائد العثماني المكلف بقيـادة الحملة العثمانية وتراخيه ، لتم لجيوش العثمانيين الاستيلاء على ايطاليا برمتها ، ولتغير بذلك وجه تاريخ أوروبا .

عند ذلك بدأت أوروبا تفيق من نومها ، وتنصرف عن حرب الاتراك العثمانيين ، لتقوية نفسها ، فقد وجدت أن بعد المسافـة بينها وبين الاتراك وسوء وسائل المواصلات يحول بينها وبين هـذه الحرب ، وبات واضحا لديها أن هذه الاتفاقيات ــ التي تعبر عـن

وحدة الهدف النصراني ـ لو تمت فما هي بقادرة على قهر الاتراك أو التغلب عليهم ، خاصة بعد معركة « نيكوپوليس » التي دافع الاتراك فيها عن مركزهم بنجاح أذهل ملوك أوروبا وشعوبها ، وكانت نتيجة هذه الموقعة خيبة أمل النصارى بدرجة لم يعد معها من السهل استثارة الاوروبيين من جديد لحرب مع المسلمين . كما أن هذه الحملات كانت تستلزم جمع المال الوفير للاستعداد للحرب ولتحرير الاسرى بعد المعارك ، ولم يعد الاوروبيون يطمئنون بسهولة الى انفاق اموالهم في حملات غير مضمونة النتائج ولا مأمونة العواقب . ولكن بالرغم من ذلك لم تكن البابوية زعيمة النصرانية لتنصرف الى اليأس او تخلد الى السكون ، فكانت تخشى اعتداء العثمانيين على البلاد المجاورة لهم والتي تخضع للنفوذ البابوي الديني ، لذلك حاول البابا « بيوس الثاني » بكل ما أوتي من مهارة وقدرة سياسية تركيز جهوده في ناحيتين اثنتين : حاول أولا أن يقنع الاتراك باعتناق الدين النصراني ، ولم يقم بارسال بعثات تبشيرية لذلك الفرض ، وانما اقتصر على ارسال خطاب الى السلطان الفاتح يطلب منه أن يعضد النصرانية ، كما عضدها قبله قسطنطين وكلوفيس ووعده بأنه سيكفر عنه خطاياه ان هو اعتنق النصرانية مخلصا ، ووعده بمنحه بركته واحتضانه ومنحه صكا بدخول الجنة . ولما فشل البابا في خطته هذه لجأ الى الخطة الثانية خطة التهديد والوعيد واستعمال القوة ، وكانت نتائج هذه الخطة الثانية قد بدأ فشلها مسبقا بهزيمة الجيوش الصليبية والقضاء على الحملة التي قادها هونياد المجري .

ونتحدث الآن عن نتائج هذا الفتح المبين في الشرق الاسلامي بايجاز فنقول: لقد عم الفرح والابتهاج المسلمين في ربوع آسيا وافريقيا فقد كان هذا الفتح حلم الاجداد وامل الاحفاد ولقد تطلعت اليه الاجيال الاسلامية طويلا ، وها قد تحقق !! ، وارسل السلطان محمد الفاتح رسلا من قبله الى مصر والحجاز وبلاد فارس والهند ـ وهي أكبر الدول الاسلامية في ذلك الوقت ـ يحملون نبأ هذا الفتح الكريم ، فأذيعت أنباء الانتصار من فوق المنابر ، وأقيمت صلوات الشكر ، وزينت المنازل والحوانيت ، وعلقت على الجدران والحوائط الاعلام والاقمشة المزركشة بألوانها المختلفة .

ويقول ابن إياس صاحب كتاب « بدائع الزهور » في هذه الواقعة : « فلما بلغ ذلك ، ووصل وفد الفاتح ، دقت البشائر بالقلعة ، ونودي في القاهرة بالزينة ، ثم ان السلطان عين برسباي أمير آخور ثاني رسولا الى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح » .

كما وصف المؤرخ المصري « ابن تغري بردي » في كتاب « حوادث الدهور » هذه الواقعة التاريخية الهامة ، ووصف شعور الناس وحالهم في القاهرة بعد أن وصل اليها قاصد السلطان الفاتح ورفاقه في الثالث والعشرين من شهر شوال سنة ٨٥٧ هجرية (٢٧ اكتوبر ١٤٥٣ م) ، بنبأ فتح القسطنطينية ومعهم الهدايا وأسيران من عظماء الروم ، قال : « ... قلت : والحمد لله والمنة على هذا الفتح العظيم ، وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران

من عظمـــاء اسطنبول [1] ، وطلع بهما الى السلطان (إينال سلطان مصر في ذلك الوقت وهو تركي أيضا) وهما من أهل القسطنطينية، فسر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم ، ودقت البشائر لذلك ، وزينت القاهرة بسبب ذلك أياما ، ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه الاسيران الى القلعة في يوم الاثنين الخامس والعشرين من شوال بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورفقته بشوارع القاهرة ، وقد احتفلت الناس وزينت الحوانيت والاماكن ، وأمعنوا في ذلك الـى الغاية ، وعمل السلطان الخدمة بالحـوش السلطانـي من قلعـة الجبل ... » .

(١) ـ اسم أطلقه الاتـراك العثمانيون على القسطنطينية بعد الفتح .

الفصل الخامس

أعمال السلطان محمّد الفاتح

- تمهيـــد .
- التنظيمات الادارية والقضائية في عهد الفاتـح .
- التعليـــم .
- الإنشـــاء والعمـران .
- الجيش والبحريـة .
- القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية .



أعمال السلطان محمد الفاتح

ـ تمهيـــد

لم تكن مهمة ما بعد الفتح العظيم سهلة يسيرة ، ولم يكــن بمثابة النهاية لآمال السلطان الواسعة ، بل انها كانت بداية لهــا ما بعدهــا . فقد حمل السلطان محمد الثاني رسالة نشر الاسلام في العالم ، وارساء قواعد حكم سليم لدولة عظيمة تدين بهذا الدين ، وتكون مهمتها الاولى الجهاد في سبيل الله ، وقد ساعده في حمــل هذه الرسالة شعب مسلم يعتز بعقيدته ، وينحدر من سلالة تركية تمتاز بالجراة والاقدام واحتمال الصعاب ، وكانت السياســة العثمانية ترمي دائما الى التفوق الحربي، وهذا ما مكنهم من تأسيس هذا الملك العريض . وأدرك السلطان محمد الثاني أن استتباب حكمه ، وتمكنه من قيادة شعبه والوقوف في وجه أعدائه ، لا يتحقق الا بهذا التفوق الحربي ، وتطوير أساليب القتال وابتكار الجديد منها ، وكانت منشآت الدولة العثمانية في عهد هذا السلطــان كما رأيناها وسنراها في ذكر بعض منها فوق مستوى عصره . وكانت دولته أقوى الدول الكبرى في القرن الخامس عشر الميلادي، وقد أزالت بقايا الدول التي كانت هشة وغير مستقرة سواء فيآسيا

الصفرى أو في بلاد أوروبا الشرقية ، واتخذت لها عاصمة جديدة عظيمة ، لها تاريخ مجيد ، جميلة الموقع ، متوسطة المركز بين بلادهم الآسيوية وممتلكاتهم الاوروبية ، وتشرف على البر والبحر ، وتتفق مع ما أصبح للعثمانيين من مجد وقوة وعظمة .

كان السلطان الفاتح مصلحا كبيرا ومنظما من الطراز الاول ، طويل الباع في الادارة الداخلية وتنظيم العمل الحكومي ، كما كان رجل حرب وصاحب عبقرية فيها ، تعد من العبقريات النادرة التي شهدها التاريخ ، والتي قل ان يجود بمثلها الزمان ، وكان رجل ثقافة ، واسع الاطلاع في العلم والادب ، يتذوق الشعر ويستلهم الفن .

وتاريخ حياة الفاتح ترينا كيف كان منذ نعومة أظفاره يمتاز بنواحي عديدة وخصائص جمة في النبوغ والعظمة ، ومن وقت أن كان أميرا شابا يعنى والده بتعليمه وتثقيفه وتربيته عناية بالغة ، ويهيؤه للاضطلاع بأعباء الملك والقيام بما ينتظره من الاحداث الجسام .

وما ان بدأ يظهر على المسرح السياسي والعسكري حتى وجدناه يرتقي السلطنة مرتين ، مرة في سن مبكرة جدا في حياة والده وبارادته ، والثانية بعد وفاته ، ويسير بشعبه سيرة حسنة ، لا يفرق بينهم في اعطاء الحق وانصاف المظلوم ، وهم كما شاهدنا من نحل وملل عديدة ، التنافر أقرب اليهم من التآلف ، وينشر الامن والعدل في الدولة العثمانية ذات المساحة الشاسعة في عصر

كثر فيه اللصوص وقطاع الطرق ، ويجمع تحت لوائه شتات الدويلات الحاكمة في الاناضول القائمة على أطلال الدولة السلجوقية، ويجعل منها جميعا دولة عظيمة ، موحدة الادارة ، قوية البنيان مرموقة المكانة ، مرهوبة الجانب .

وقد نجح السلطان محمد الفاتح نتيجة المجهود الضخم الذي بذله في تنظيم الدولة في الادارة والقضاء نجاحا باهرا ، ولم يكن هذا النجاح يقل بأية حال عن نجاحه في ميدان القتال وتحطيم قوى أعدائه . وقد أحدث في البلاد ألتي فتحها تنظيما شمل جميع مرافقها وفقا لما كان سائدا في عصره من العرف والاساليب ، وفي حدود ما ترسمه الشريعة الاسلامية من النظم والاحكام ، وكان تنظيمها مثلا أعلى في الابداع والاتقان بالنسبة لعصره .

ولا نستطيع فيعرضنا لسيرة السلطان محمد الفاتح ان نشير الى أعماله وبطولاته برمتها ، فان ذلك يحتاج بدون مبالغة الى مجلدات ضخمة اذا أردنا أن نوفيه حقه منذ صباه الى آخر لحظة في حياته ، التي أوقفها كلها على رفع راية الاسلام خفاقة عالية واعلاء شأن أمته ، والعمل على خير شعبه ، والحفاظ على مكاسبه التي حققها بحد حسامه وقذائف مدافعه . وليس أدل على ما نقوله من انه قاد وهو في سن الثالثة والعشرين من عمره أعظم الجيوش البرية والبحرية وابتكر أساليبا وخططا لم تكن معروفة في عالم الحرب وفنون القتال ، فقدّره عدوه قبل صديقه، وبهرت أفعاله العالم بأسره ، وأنزل الرعب في قلوب أعداء الاسلام ،

وجعلهم في هم دائم وقلق مستمر ومستقبل مظلم ، وبفضل عزيمته القوية وشعبه المسلم القوي المجاهد هزم أقوى جيوش أعدائــه ، واخضع الثائرين ، وحطم القلاع المنيعة التي عاصرت القــرون والدهــور .

التنظيمات الادارية والقضائية في عهد الفاتح

اننا حين ننظر فيالقوانين التي سنهــا السلطــان محمــد الفاتح لتنظيم شئون الادارة الداخلية ، وتنظيم اختصاصات كبار رجال الدولة ، وحينننظر فيما اتخذه من تقاليد ومراسم وتشريفات لقب من أجلها بالقانوني ـ وان اشتهر أحد أخلافه وهو السلطــان سليمان بهذا اللقب ـ نجد أن السلطان محمد الفاتح قد وضع كل ما يتطلبه كيان دولة ، وأرسى أساسها بحيث يضمن لها السلامة والامــن سواء داخل الدولة او خارجها .

وقد كانت تشكيلات الدولة العثمانية التياستحدثها السلطان محمد الفاتح من الكثرة والاتقان بحيث فاقت جميع الدول المعاصرة، واصبحت نموذجا يحتذى به . وقد أقدم السلطانالفاتح علىترتيب الحكومة الجديدة ، واستفاد من كل الظروف المحيطة به ، واستلهم من كل الحضارات التي ترك تراثها للعثمانيين ، فهو سلطان مسلم يحكم دولة اسلامية ، وهو في نفس الوقت من أصل تركي ، وعليه ان يقود الشعب التركي ويحقق أمانيه ورغباته ، ويحافظ عــلى اصالته وتقاليده وعاداته . وفي نفس الوقت جلس على عــرش

الاباطرة البيزنطيين في مدينتهم العتيقة وعلى نفس عرش القياصرة، فأصبح رئيسهم بعد أن غير قبعة الامبراطور بعمامة التركي الكبيرة البيضاء ، وعليه ان يقتبس بعض عادات وسلوك الشعب الرومي نتيجة اختلاطه به ، كما حل محل الامراء الكثيرين الذين كانوا يحكمون في البلقان وآسيا الصغرى ، وانتزع من قلوب رعيتهم الولاء الذي عبروا عنه في محبة عظيمة للسلطان وتفان في خدمة الدولة العثمانية . وشهد عصره تكاتف هذه الفئات والطوائف الدينية والعنصرية ، والتفوا حول سلطانهم واخلصوا له وتفانوا في خدمة الدولة ، وكل هذه التغييرات التي اقدم عليها الفاتح في مدة حكمه التي تزيد قليلا عن الثلاثين عاما ، رغم ضخامتها وكثرتها لم يجند لها سوى القليل من الموظفين ، ولم ينفق سوى القليل من المال وبأحسن ما يكون النظام والانتظام .

وكان أهم عمل اداري في عهد السلطان الفاتح هو الديوان ، الذي كان يجتمع رجاله في القصر السلطاني قبل ظهر كل يوم ماعدا أيام العطلات الرسمية ، وكان يتألف من : الوزير الاعظم ، ووزراء القبة[1] ، وقضاة العسكر ، وقاضي استانبول، وآغا الانكشارية، وبعض كبار رجال الدولة بحكم مناصبهم .

وكان الديوان يتميز بروح الانصاف واحقاق الحق ، وتصدر

---

(١) ـ كان عددهم أربعة وسموا كذلك لانهم كانوا يجتمعون ويتداولون أمورهم في مبنى تعلوه قبة ، ولا يزال هذا المبنى موجودا حتى الآن في سراي « طوبقبو » باستانبول.

قراراته من قبل قضاة العسكر او قاضي استانبول ، على اساس ان الادارة في الاسلام قائمة على الشورى ، وعندما ينعقد الديوان يتلو رئيس الكتاب الموضوعات والقضايا المعروضة ، ويبت فيها ، ثم يصدر الحكم فيها قاضي العسكر او قاضي استانبول على حسب نوع القضية او المشكلة المعروضة . وكان الفرض من اصدار الحكم من مرجع ديني كبير مثل قاضي العسكر او قاضي استانبول هو تحقيق العدالة ، لما يتمتع به القضاة من الاستقلال والحرية . وفي كثير من القضايا كان القضاة يستشيرون أعضاء الديوان قبل اصدار الاحكام ، للاستفادة من أهل العلم وذوي الكفاءة في القضايا المعروضة عليهم عندما يرون الحاجة ماسة الى ذلك .

وكان السلطان محمد الفاتح يدعو في اوامره وتعليماته التي يصدرها لولاته الى الاهتمام بالعلم والعدالة ، فبالعلم ترتقي الدولة وتنهض ، ويزداد دخلها ، وتنهتك عنها استار الظلمة والظلام ، وبالعدل تطمئن الرعية ، وتسعى الى العمل السليم الواضح، وتتفتق اذهانها بالافكار الجديدة والنظريات السليمة الصائبة . وكان السلطان محمد الفاتح يعلق فوق عرشه الفاخر الكلمة التالية : ((**العدل اساس الملك**)) . وكان شديد الحرص على اجراء العدالة الدقيقة الحازمة في كل جزء من اجزاء مملكته ، مسترشدا بالخط الذي كان يسير عليه ثاني الخلفاء الراشدين في العدل والحق ، وخدمة الرعية خدمة تامة ؛ وكان كثيرا ما يتمثل بقولة عمر رضي الله عنه : « والله لو تعثرت عنزة في العراق لسئل عنها عمر يوم

القيامــة » واجبر عماله على السير في خطاه ، ودفع الشر والاذى عن رعيته ، مؤكدا عليهم ان يعملوا على تحقيق الرفاهية والرخــاء للجميــع .

وكان الامن الداخلي والطمأنينة في تلك العصور مشكلة كبرى لوجود اللصوص وقطاع الطرق ، ولا بد من قطع دابر هؤلاء ، فعني السلطان محمد الفاتح قبل كل شيء بنشر الطمأنية والسلام في امبراطوريته ــ التي تجمع جنسيات مختلفة القوميات والاديان والعادات ــ ، ولم يكن هذا بالامر السهل الهين ، فبجانب الاتراك المسلمين ــ وهم عمود الدولة الفقري ، وقوتها الاساسية ــ يوجد : الاغريق ، والصقالبة على اختلاف أنواعهم ، والبلغار ، والالبانيين، ويوجد نصارى أرثوذكس بجوار الكاثوليك في تلك البوتقة الكبرى التي تسمى بالدولة العثمانية ، عاش هؤلاء جميعا قبل الحكـم العثماني حياة اضطراب وفوضى ، بحيث اصبحت عادتهم عـدم الاستقرار والتخوف من المستقبل ، وتفشت بينهم روح الخيانة كذلك تفشى الحسد والبغض لكل من يتفوق حتـى في داخـل المجموعة الواحدة بل وحتى في داخل البيت الواحد ، كما فقدوا الحرية والراحة والامن والسلام ، فوضع الفاتح قوانينه التـي نظمت لسكان الدولة من غير المسلمين العلاقات بينهم وبين جيرانهم من المسلمين ، وبينهم وبين الدولة التي تحكمهم وترعاهم ، واشاع العدل والكفاية في رعيته ، وجدّ في ملاحقة اللصوص وقطاع الطرق، واجرى عليهم حكم الاسلام ، فاستتب الامن وسادت الطمانينة في ربوع المملكة الشاسعة .

وأهم عمل اداري قام به السلطان محمد الفاتح هو تقنين الشرع ، فشكل لجنة اختارها بنفسه بدقة وتمعن من كبار العلماء، ووضع « قانون نامه » الذي جعله أساسا لحكم دولته ، وكان هذا القانون مكونا من ثلاثة ابواب، يتعلق بمناصب الموظفين وببعض التقاليد وما يجب أن يتخذ في التشريفات والاحتفالات السلطانية ، وهو يقر كذلك العقوبات والغرامات ، ونص صراحة على جعل الدولة حكومة إسلامية قائمة على تفوق العنصر الاسلامي أيا كان أصله وجنسه .

وكان هناك صدر أعظم هو الشخص الثاني في الدولة ، ومعه أربعة وزراء يساعدون الصدر الاعظم الذي احتفظ لنفسه بقيادة الجيش ورئاسة الديوان ، وأبقى السلطان النظام الذي كان سائدا لحكم الولايات أيام أسلافه ، وادخل عليه بعض التعديلات الطفيفة التي تتناسب وعصره ودولته . وكانت الدولة تنقسم الى ولايات كبرى يحكمها أمير الامراء وكان يسمى « بكلربك » والى ولايات صغرى ويحكمها أمير اللواء ، وكان يسمى « سنجق بك » وكلا الحاكمان كان يقوم بأعمال مدنية وعسكرية في آن واحد ، وترك لبعض الامارات الصقلبية في أول الامر بعض مظاهر الاستقلال الداخلي ، فكان يحكمها بعض امراء منها ولكنهم تابعون للدولة ينفذون أوامر السلطان بكل دقة ، وهو يعزلهم ويعاقبهم اذا خالفوا أوامره أو فكروا في الثورة على الحكومة العثمانية ، وعندما تعلن الدولة الحرب وتدعو أمراء الولايات وامراء الالوية ، كان عليهم

ان يلبوا الدعوة ويشتركوا في الحرب بفرسان يجهزونهم تجهيزا تاما ، وذلك حسب نسب مبينة ، فكانوا يجهزون فارسا كامل السلاح قادرا على القتال عن كل خمسة آلاف آقجه من ايراد اقطاعه ، فاذا كان ايراد اقطاعه خمسمائة الف آقجه مثلا كان عليه ان يشترك بمائة فارس ، وكانت جنود الإيالات مؤلفة من مشاة وفرسان ، وكان المشاة تحت قيادة وادارة باشوات الإيالات وبكوات الالويـة .

التعليـم :

لم تكن عناية السلطان محمد الفاتح بالعلم والثقافة بأقل من عنايته بشئون السياسة والحرب ، فقد كان شديد الاحترام للعلماء ورجال الدين والمتعلمين بصفة عامة ، وكان يدرك بفطنته أن القوة المادية والحربية لا تكفل وحدها للشعب السعادة والمجد والاحتفاظ بالمكاسب العسكرية والسياسية ، وأنه لا بد من دعمها بقوة العلم والايمان والعدل ، ولذلك كان يعمل دائبا وبجهد حقيقي، ليجعل من دولته موطنا للعلم ومجمعا للعلماء والشعراء ومركزا للعدالـة .

وكانت الدولة العثمانية منذ نشأتها تعتمد على قضاة مسلمين وفقهاء متمكنين من علمهم ، يختارون من بين العلماء القادرين على الاضطلاع بأعباء القضاء وسياسة الرعية ، ممن نشأوا في البلاد الاسلامية مثل الاناضول ومصر وسوريا وايران . وبعد فتح القسطنطينية اتسعت البلاد وتباينت الموضوعات ، فاقتضى هذا

الوضع الجديد للدولة مضاعفة العناية بشئون التعليم والقضاء ، فأنشأ السلطان محمد الفاتح في سنة ٨٧٥ هجرية مؤسسة علمية كبرى في عاصمة الدولة الجديدة ، وكان الغرض الذي يرمي اليه السلطان من انشاء هذه الجامعة العلمية تخريج علماء متبحرين في العلوم كلها خصوصا في العلوم الدينية ، ولهذا السبب استقدم السلطان الفاتح كبار العلماء والاساتذة من البلاد الاسلامية الاخرى، واستعمل معهم جميع أساليب الاغراء والتشجيع وبذل لهم بعد قدومهم واستقرارهم ضروب التكريم والانعام .

وما هي الا فترة قصيرة من الزمن حتى تحقق الغرض الذي من اجله أقدم السلطان محمد الفاتح على انشاء جامعته العلمية ، فتخرج منها عدد لا يحصى من العلماء والفقهاء والشعراء ورجال الفن والادب ، مدونة أسماؤهم في كتب التاريخ والتراجم مما يطول شرحه ويعجز حصره ، وكان السلطان محمد الفاتح عقب فتح القسطنطينية قد انشأ مدرسة آيا صوفيا وولى عليها المولى خسرو ، ففاقت المدارس الموجودة في ذلك العهد ، وحازت على شهرة علمية كبيرة ، وقصدها طالبو العلم والمعرفة ، واحتفظت بمركزها العلمي الممتاز سنين عديدة الى أن تمت تشكيلات مدارس الفاتح .

وكانت مراحل التعليم والنظم الدراسية المتبعة بمدارس السلطان الفاتح على النحو التالي :

المرحلة الاولى	وتسمى	الخـارج
المرحلة الثانية	وتسمى	الداخل
المرحلة الثالثة	وتسمى	موصلة الصحن
المرحلة الرابعة	وتسمى	الصحـن

وكانت مدارس المرحلة الاولى تدرس فيها مبـادىء العلـوم الدينية والرياضية والطبيعية ، علاوة على حفظ أجزاء من القرآن الكريم ، وتسمى في مجموعها « دروس الخارج » والمرحلة الثانية كانت تدرس فيها مقاصد هذه العلوم ولاسيما الفقه ، ويضاف اليها مواد التاريخ الاسلامي واللغة العربية ، وهي في مجموعهـا عموميات ومدخل للتخصص ، ويمكن لخريج المرحلة الثانية تولي الوظائف البسيطة . أما الطالب الذي كان يريد الانخراط في السلك العلمي فعليه أن يلتحق بالمرحلة العلمية الثالثة ، وهي بمثابـة اعدادي للمرحلة الاخيرة حيث يدرس على يد علماء متخصصين في العلوم العالية المقررة فيها ، حتى اذا أتم دراسته بنجاح خـول له ذلك حق الالتحاق بمدارس الصحن .

ومدارس الصحن هي بمثابة جامعة علمية كبرى ، تتكون من المدارس الثمان المبنية حول جامع الفاتح ، وبجوارها المدارس الموصلة للصحن وهي ثماني مدارس أخرى بنيت خلف المدارس الثماني المشار اليها . ويبلغ عدد المدارس المطلة على البحر الابيض ثمان مدارس نصفها مدارس صحن والآخر مدارس تتمة ، ومثلها

كذلك بجهة البحر الاسود ، وفي الوقفية التي تركها السلطان الفاتح سميت مدارس الصحن الثمان بالمدارس العالية وسميت مدارس التتمة بالمدارس الصغرى .

وانشأ السلطان محمد الفاتح بجوار هذه المدارس مطعما خيريا ومستشفى كامل المعدات ، كان في نفس الوقت مستشفى تعليميا يتمرن طلاب الطب فيه ، شأنه في ذلك شأن مستشفى قصر العيني والدمرداش في مصر في العصر الحديث ، وكانت فروع العلم تدرس في هذه المدارس ويتخرج منها القضاة والاطباء والمهندسون والزراعيون والتجاريون والمعلمون ، وكان خريجو مدارس الصحن بصفة عامة على خلق حسن وسلوك مستقيم ، ومقدرة علمية فقد تربوا تربية دينية ، وتأصلت في قلوبهم عقائد الاسلام ، لذا نالوا احترام وثقة الناس ، في مجالات أعمالهم ، وكانوا يلقون من السلطان الفاتح نفسه العطف والرعاية والاحترام .

الانشاء والعمران :

اما فيما يتعلق بالاعمال الانشائية والعمرانية والاعمال المتصلة بالاغراض السلمية فقد اكثر الفاتح من انشاء المباني والطرق والجسور ، وخص مدينة القسطنطينية بأعظم قسط من عنايته واهتمامه في هذه الناحية ، فما ان دخلها حتى عين محافظا لها عهد اليه بالاشراف على تعمير المدينة وتخطيطها من جديد ، واضافة احياء اليها ، وتنظيم شئون الادارة فيها ، وكان مما فعله لتشجيع الاقامة في المدينة التاريخية أن بعث الى ولاته في الاناضول والرومللي

يطلب منهم ارسال جماعات من السكان الى القسطنطينية ، فأوفدوا اليها الآلاف من الاسر المختلفة يحدوهم المكسب المادي والشهرة العريقة والمنصب الرفيع .

وأنشأ السلطان محمد الفاتح في القسطنطينية كثيرا من المساجد والمعاهد العلمية ، والقصور والمستشفيات والخانات والحمامات العامة والاسواق الكثيرة والحدائق الواسعة ، وادخل المياه الى المدينة عبر قناطر خاصة ، وشجع الوزراء وكبار رجال الدولة والاغنياء والاعيان على تشييد المباني وانشاء المحلات التجارية التي تزيد في عمران المدينة ، حتى أصبحت ثلاثة أضعاف ما كانت عليه أيام قسطنطين آخر أباطرة بيزنطة ، فقد كان السلطان محمد الفاتح يريد ان يجعل من القسطنطينية « أجمل عواصم العالم وحاضرة العلوم والفنون » .

ومن آثار السلطان محمد الفاتح الانشائية بناء دار السعادة القديمة (العتيقة) بقرب الجامع الذي انشأه السلطان بايزيد الاول ، فكانت أول دار حكومية أنشأها سلاطين آل عثمان بعد فتح هذه المدينة ، وكذلك بناؤه الجامع الشهير باسمه وهو الواقع على التل الرابع في المدينة والذي قام ببنائه المهندس اليوناني « خرستو دولوس » على أنقاض كنيسة « سان أپوتر » وله مئذنتان عاليتان وهو في تمام الروعة والفخامة ، وقد صمم هذا الجامع بحيث يرى من البحر على بعد مسافة بعيدة وبحيث يستشعر الناظر فورا الروح الاسلامي لهذا البلد الذي هو مقبل عليه .

ومن المنشآت المعمارية الاخرى ، جامع ابي ايوب الانصاري وجامع الشيخ البخاري بجانب باب أدرنة ، وجامع الانكشارية المسمى « أورطه جامعي » . ويعتبر السلطان محمد الفاتح أول من اسس مكتبة هي الاولى من نوعها في استانبول ، وحذا حذوه خلفاؤه من بعده ، فحفظوا لنا التراث الاسلامي بشتى لغاته ومختلف مواضيعه من الضياع والتلف ، ولولا ذلك لاندثر جزء كبير من تراثنا الانساني الاسلامي ، أو استولى عليه الغرب واخذه الى بلاده ونسبه اليه . وكذلك شيد السلطان محمد الفاتح جامع « كوتشك آيا صوفيا » أي جامع آيا صوفيا الصغير وهو واقع على بحر مرمرة وكان في الاصل كنيسة القديس سرجيوس . وايضا جامع « زيرك » الواقع على القرن الذهبي وسمي على اسم مولانا زيرك العالم الديني الصوفي الشهير من رجال القرن التاسع الهجري.

أما التجارة والصناعة فقد عني السلطان محمد الفاتح بهما ، وعمل على انعاشهما بجميع الاساليب والوسائل ، وكان العثمانيون مهرة في انشاء الطرق والكباري مما سهل التجارة في جميع انحاء الدولة ، وقد اضطرت الدول الاجنبية الى السماح بفتح موانيها للتجار الاغريق وكانوا قد منعوا من دخولها في عهد الاباطرة البيزنطيين ، ذلك انهم قد أصبحوا في تلك الحالة يبحرون في ظل الراية العثمانية ، وقد اتخذوا زي الاتراك وعاداتهم ، ومن ثم ظفروا من امم غربي أوروبا بالاحترام والتقدير اللذين كان الكاثوليك يرفضون دائما حتى ذلك الحين أن يمنحوهما افراد الكنيسة

الاغريقية ، وكان من اثر ذلك ان عم الرخاء وساد اليسر والرفاهية في جميع أرجاء المملكة .

الجيش والبحرية :

اهتم السلطان محمد الفاتح بالجيش وأولاه رعاية خاصة ، فالجيش في نظره أساس الدولة وركنها الاول ، فعني باعادة تنظيمه وبمسألة قيادته ، فكان لكل فرقة آغا هو قائدها ، وجعل لآغا الانكشارية حق التقدم على القواد الآخرين ، فهو يتلقى أوامره من الصدر الاعظم الذي جعل له السلطان القيادة العليا للجيش كما سبق أن ذكرنا .

وقد تميز عهد السلطان محمد الفاتح الى جوار قوة الجيش البشرية وتفوقه العددي ، بانشاءات عسكرية عديدة ومتنوعة ، فأنشأ دور الصناعة العسكرية لسد احتياجات الجيش من الملابس والسروج والدروع ومصانع الذخيرة والاسلحة ، وأقام القلاع والحصون في المواقع ذات الاهمية العسكرية . وكانت هناك تشكيلات عسكرية متنوعة في تمام الدقة وحسن التنظيم من فرسان ومشاة ومدفعية وفرق مساعدة ، تمد القوات المحاربة بما تحتاجه من وقود وغذاء وعلف للحيوان واعداد صناديق الذخيرة حتى ميدان القتال، وكان هناك صنف من الجنود يسمى «لغمجية» مهمتهم الحفر للالغام وحفر الانفاق تحت الارض اثناء محاصرة القلعة المراد فتحها، وكذلك السقاؤون كان عليهم تزويد الجنود بالماء .

وفوق ذلك كانت هناك جامعة عسكرية لتخريج المهندسين والاطباء والبيطريين وعلماء الطبيعيات والمساحة ، أنشئت داخل القصر السلطاني وعرفت بمدارس « أندرون همايون » وكانت تمد الجيش بالفنيين المتخصصين وقد أكسب هؤلاء العثمانيين شهرة عريضة في الدقة والنظام .

وكما أولى السلطان محمد الفاتح الجيش البري اهتمامه الزائد وعنايته الفائقة، كذلك أولى القوة البحرية باهتمام مماثل، لانه ادرك عظم خطورتها واهميتها وشدة الحاجة اليها منذ فتح القسطنطينية، حيث ثبت له أن النصر كان بعيد المنال طالما أن المدينة لم يحكم حصارها وتطويقها من البحر والبر جميعا ، وعين السلطان الفاتح سليمان باشا بلطه أوغلو قائدا بحريا عاما سنة ٨٥٥ هجرية، وهو أول من ولي هذا المنصب ، وبعد فتح القسطنطينية ضوعفت العناية بالسلاح البحري ، فلم تمض الا مدة من الزمن قليلة حتى سيطر الاسطول العثماني على البحرين الاسود والابيض .

وكان الاسطول البحري يدار من قبل الترسانة ، وكانت احدى فروع جنود الخاصة وتسمى بطائفة العزب أيضا ، ويبلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف جندي بحري تتألف من : القبطان ، وقواد السفن ، والضباط ، والبحارة . ونترك حديثنا عن هذا الموضوع ونحيل القارىء الى الاعمال الجليلة التي قام بها جنود البحرية والتضحيات الجسيمة التي قدموها اثناء قتالهم مع أعدائهم ، فحافظوا بذلك على سلامة حدود الدولة التي تواجه

البحر في انحاء كثيرة ، واذا تصفحنا بعض كتب البحرية الاسلامية مثل كتاب « حقائق الاخبار عن دول البحار » لمؤلفه اسماعيل سرهنك ومثل تاريخ جودت باشا التركي، نجد اهتمام السلطان محمد الفاتح بالبحرية العثمانية، وانه كان اهتماما بالغا استحق معه ان يعده المؤرخون مؤسس الاسطول العثماني ، وكان يشجعه على ذلك ما شاهده بنفسه من المستوى الذي وصلت اليه الدول الايطالية وبخاصة البندقية من عظمة وقوة وثراء ورخاء بفضل اسطولها القوي الذي يجوب البحار . ومن ثم لم يدخر السلطان الفاتح وسعا في سبيل تنمية القوة البحرية وادخال أسباب التحسين والتقدم ، فأمر باتخاذ سفن جنوا والبندقية ــ أكبر الدول البحرية في ذلك الوقت ــ نماذج تبنى على مثالها السفن العثمانية ، ومن القصص الطريفة عن الاسطول العثماني في عهد الفاتح أنه عندما وجد في سينوب سفينة ضخمة نادرة المثال أمر بأخذها وبناء سفن على نمطها مع ادخال التحسينات عليها .

القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية

انتقل السلطان محمد الفاتح الى القسطنطينية وأعلنها عاصمة للدولة العثمانية ، وانتقلت اليها بالتالي دواوين الحكومة ومكاتب الموظفين الرسميين ، فأخذت تغير من وجهها النصراني وطابعها البيزنطي الى طابع اسلامي جميل ، وتحولت كثير من الكنائس الى مساجد ، وفي نفس الوقت احتفظت بكثير من صفات الفن البيزنطي القديم مع اضافة لمسات اسلامية وهو ما يعرف بالفن العثماني ،

كتشييد المآذن العالية والقباب المستديرة ، وكتابة الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الشريفة والحكم العربية على صدور المباني وفوق الشبابيك والابواب . ولم تمض بضعة أيام على فتح القسطنطينية حتى ساد الامن والسكينة ربوعها ، واستأنف الناس حياتهم العادية في ظل حكم عادل رحيم ، وقويت هجرة المواطنين المسلمين الى هذه العاصمة ، لاسيما أهل العلم والاختصاص، وأهل النباهة والشرف والجاه ، وسعد المسلمون برؤية عشرات المساجد وقد بنيت في المدينة وانتصبت مآذنها العملاقة ، واصبحت اصوات المؤذنين تنساب من فوقها في وقت واحد ، معلنة عزة الاسلام ، وداعية الناس الى الاقبال على بيوت ربهم ، واداء صلاتهم خلف أئمتهم .

ومما يعجب المرء جدا ان القسطنطينية بعد الفتح الاسلامي ، أصبحت ملجأ العالم كله ، يأمن فيها الخائف والمذعور، ويطمئن فيها المضطهد والمظلوم ، وينال فيها جميع الناس العدل والمساواة والحرية على سواء ، لا تمييز بين غني وفقير ولا بين عظيم وحقير . ولقد لجأ الى المدينة تحت رعاية السلطان الفاتح عدد كبير من عرب أسبانيا ويهودها ، الذين اضطهدتهم الكنيسة الكاثوليكية وأذاقتهم أصناف العذاب ، ووجدوا بها الامن ، وطابت لهم فيها الحياة .

ولم تكن القسطنطينية في عهد الفاتح أجمل العواصم الاسلامية وأهمها فحسب ، بل أصبحت مركزا للسياسة العالمية ومحورا لها ،

واعترف بجلالها وعظمتها أعداء السلطان نفسه ، وتغيرت فكرتهم عن الاسلام وتبدلت نظرتهم الى الشعب الاسلامي . وفي الحقيقة فان الفتح الذي جرى على يدي السلطان محمد الثاني لم يكن وحده دالا على عظمة هذا السلطان ، بل ان حسن ادارته وسماحته ورحمته وعدله وفضله كل ذلك دل على ذلك أيضا ، ولقد أحبت الشعوب النصرانية هذه المزايا التي تحلى بها السلطان ، وفتحت قلوبها له ورضيت به حاكما ، وبعاصمته مدينة للعدل والتسامح والمحبة .

ويذكر السير توماس ارنولد في كتابه ((الدعوة الى الاسلام)) ، أنه كان في ايطاليا نفسها ـ وهي حصن النصرانية ومقر البابوية ـ قوم يتطلعون بشوق عظيم الى الترك ، لعلهم يحظون كما حظي رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح الديني ، اللذين يئسوا من التمتع بهما في ظل أية حكومة نصرانية . ومما يؤكد صحة كلام هذا المؤرخ أن كثيرا من الناس فكروا في الانضمام الى الجيش العثماني ـ بعد نزوله في ايطاليا ـ ومعاونته في تحطيم نير رجال الدين والامراء ، بل ان كثيرا من الجنود النصارى قد فروا فعلا من وحداتهم العسكرية وتركوا راياتهم النصرانية وانضموا الى صفوف العثمانيين .

نظـرة اخيـرة

إلى السلطان محمد الفاتح

وبعد ان حكم هذا العاهل الكبير احدى وثلاثين سنة ، حقق فيها من جسام الاعمال الشيء الكثير ، وفتح عهدا جديدا في العالم الاسلامي ، وغير مجرى تاريخ العالم كله ، جاءه الاجل الذي لا يرد فمات – رحمه الله تعالى – وسط جيشه ، في ليلة الجمعة الخامس من ربيع الاول سنة ٨٨٦ هجرية (٣ مايو ١٤٨١ م) وهو في سن الحادية والخمسين من عمره .

وقصة وفاته تدلنا على عظمة هذا السلطان الجليل ، وتزيد القارىء احتراما واجلالا لشخصيته ، فقد انتقل السلطان من استانبول العاصمة الى اسكدار في السادس والعشرين من شهر صفر سنة ٨٨٦ هجرية ، وكان قبل مغادرته عاصمة ملكه قد انتابته وعكة خفيفة لم يحفل بها ، وفي الطريق اشتد به المرض وثقلت وطأته ، ولم تمض أيام قليلة على ذلك حتى وافته المنية ، ورفعت روحه الطاهرة الى بارئها . هذا وفي الوقت الذيانطفات فيه حياة هذا البطل بموته شبه المفاجىء ، كان على اهبة الخروج بجيشه المظفر الى حرب جديدة قيل ان وجهتها كانت ايطاليا ، ليتم له

فتحها ، لكن المنية اعترضت هذه المرة هذا المجاهد النبيل ، وانهت قصة حياة كانت البطولة بدايتها ونهايتها .

وكما بكاه شعبه التركي الذي أخلص له وتعلق به ومنحه الثقة كل الثقة ، بكاه المسلمون في جميع اقطار الارض ، وحزنوا لوفاته ، فقد بهرتهم انتصاراته ، وأعادت اليهم سيرة المجاهدين الاول من السلف الصالح . ولاشك أن الاسلام فقد بموته ركنا من أركانه الشداد وسيفا من سيوفه المسلولة ، وكفاه فخرا أنه ترك وراءه دولة منيعة استمرت خمسة قرون وكانت درعا للاسلام والمسلمين ، واكسب العثمانيين شهرة تتصف بالسماحة والعدل وحسن المعاملة في الحرب والسلم في كافة بلاد الدنيا ، وأصبح بفضله كثير من سكان المعمورة يرون في الجيوش الاسلامية العثمانية جيوش تحرير وانقاذ من إسار الظلم والاستبداد ، واستطاع ان يوجد جيشا كان يعد في اخريات أيامه من أقوى جيوش العالم ، واكملها تدريبا ، واحسنها تنظيما ، يتولى قيادته سلطان في مقتبل الكهولة، **واسع الدهاء ، شديد الذكاء ، عميق الحيلة ، قوي الشكيمة، صلب الارادة لا تلين له قناة ، يتوقد غيرة على الإسلام ويسعى للجهاد في سبيله ونصرة اهله .**

ذلك كان شعور المسلمين تجاه وفاة السلطان الفاتح ، أما أوروبا النصرانية فقد أقامت مظاهر الفرح والابتهاج بوفاته ، وكان أشد الناس اغتباطا فيها بطبيعة الحال « بابا روما » الذي كان يعد العدة للفرار من روما خوفا على عرشه أن يسقط على يد العثمانيين ،

فلم يكد يبلغه نبأ وفاة السلطان الفاتح حتى أمر بفتح جميع الكنائس ، واقيمت فيها الصلوات والاحتفالات ، وسارت المواكب العامة تجوب الشوارع والطرقات وهي تتغنى بأناشيد النصر والفرح بين طلقات المدافع ودق أجراس الكنائس ، ولم ينس البابا ان يأمر بالغاء الاستعدادات التي أعدت لفراره ، وظلت هذه الاحتفالات وتلك المهرجانات قائمة في روما طيلة ثلاثة أيام ، وايقنت أوروبا كلها انها تخلصت بوفاته من أعظم خطر كان يهددها .

ولم تطو صحيفة السلطان محمد الفاتح حتى بدأ الازدهار واضحا في العاصمة الاسلامية الجديدة « القسطنطينية » والتي أخذت اسما إسلاميا هو « أسلام پول » أي « عاصمة الاسلام » والتي تحورت نتيجة النطق التركي لهذه الكلمة الجميلة الى «استانبول» وسرعان ما انتهت الى أن تكون مركزا من أهم المراكز الثقافية في العالم الاسلامي وقبلة لمعظم سكانه ، واصبحت عاصمة حقيقية لدولة هي أقوى دولة في العالم في عصرها ، بعد أن كانت عاصمة لدولة منهارة مضمحلة ، وسيظل اسمها ما بقيت مقرونا باسم منشئها قسطنطين الاكبر وفاتحها السلطان محمد الفاتح .

واذا كنا في هذا الكتاب قد عرضنا سيرة السلطان الفاتح بايجاز ، فهي على ايجازها سيرة عظيمة ، على المسلمين ان يتعرفوا عليها ، وينتفعوا بها ، ويكبروا من شأن صاحبها ، فهو عظيم ومن كملة الرجال ، فاذا ذكرنا القادة العسكريين فهو في زمرتهم ، وان عددنا المقننين فهو سيدهم ، وان جاء ذكر الادباء والشعراء فهو

صاحب ذوق ادبي رقيق وفن جميل ، وان فتشنا عن أولئك النفر القليل جدا من الرجال الذين جمعوا كمال الرجولة ومظاهر العظمة وجدناه واحدا من هذا القليل ، فرحمه الله رحمة واسعة ، ونفع بسيرته المسلمين .

وصية السلطان محمد الفاتح لولده

ونحب أخيرا أن نختتم سيرة هذا البطل المسلم بهذه الوصية الرائعة ، التي أوصى بها ابنه وخليفته من بعده ، والتي تعبر اتم التعبير عن آماله ومثله وفضائله التي عاش لها ومن أجلها ، والتي مات وهو يتطلع اليها .

قال السلطان محمد الفاتح ـ رحمه الله ـ في وصيته لابنه :

« ها أنذا أموت ، ولكني غير آسف لاني تارك خلفا مثلك .

كن عادلا صالحا رحيما ، وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز ، واعمل على نشر الدين الاسلامي ، فان هذا هو واجب الملوك على الارض .

قدم الاهتمام بامر الدين على كل شيء ، ولا تفتر في المواظبة عليه ، ولا تستخدم الاشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين ، ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش ، وجانب البدع المفسدة ، وباعد الذين يحرضونك عليها .

وسع رقعة البلاد بالجهاد ، واحرس أموال بيت المال من أن تتبــدد .

اياك أن تمد يدك الي مال أحد من رعيتك الا بحق الاسلام ، واضمن للمعوزين قوتهم ، وابذل اكرامك للمستحقين .

وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولــة ، فعظم جانبهم وشجعهم ، واذا سمعت باحد منهم في بلــد آخــر فاستقدمه اليك ، واكرمه بالمال .

حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند ، واياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك ، واياك أن تميل الى أي عمل يخالف احكــام الشريعة ، فان الدين غايتنا ، والهداية منهجنا ، وبذلك انتصرنا .

خذ مني هذه العبرة : حضرت هذه البلاد كنملة صغيرة ، فاعطاني الله تعالى هذه النعم الجليلة ، فالزم مسلكي ، واحذ حذوي، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله ، ولا تصرف امــوال الدولة في ترف أو لهو ، او أكثر من قدر اللزوم ، فان ذلك مــن أعظــم أسباب الهلاك » .

المراجع

أولا ـ المراجع العربيـة :

١ ـ ابن اياس ، محمد ابن أحمد

بدائع الزهور في وقائع الدهور ، المطبعة الاميرية ببولاق ، القاهرة سنة ١٣١١ هـ .

٢ ـ ابن تَغرِي بَرْدي ، ابو المحاسن يوسف .

ـ حوادث الدهور في مدى الايام والشهور ، طبعة كاليفورنيا ، ١٩٣٠ ـ ١٩٣٢ م .

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، (الاجزاء من ٤ ـ ١٢) ، نشر دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٢ ـ ١٩٥٦ م.

٣ ـ ابن العماد ، أبو الفلاح عبد الحي (المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ ١٦٧٩ م)

شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ، مطبعة القدسي القاهرة سنة ١٣٥١ هـ .

٤ ـ دكتور احمد السعيد سليمان

تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة ، تأليف ستانلي لين پول سنة ١٨٩٣ ، وترجمه الى الروسية بارتولد عام ١٨٩٩ ، ثم نقله الى التركية خليل ادهـم عام ١٩٢٧ . واكمله الاستاذ الدكتور أحمد السعيد سليمان حتى وقت تعريبه الكتاب ، جزء أول سنة ١٩٧١ ، جزء ثانـي سنة ١٩٧٢ ، دار المعارف بمصر ، القاهرة سنة ١٩٧٢ .

٥ ـ ارنولد ، السير توماس

الدعوة الى الاسلام ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، نقله من من الانجليزية الى العربية الدكتور حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين واسماعيـل النحـراوي ، القاهـرة سنة ١٩٥٧ .

٦ ـ بارتولـد

تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة الدكتور أحمـد السعيد سليمان وراجعه الاستاذ ابراهيم صبري، نشر مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة سنة ١٩٥٨ .

٧ ـ بينـز ، نورمـان

الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، تقديم محمد مصطفى زيادة ، القاهرة سنة ١٩٥٧ .

٨ ـ بيهم ، محمد جميل
ـ أوليات سلاطين تركيا ، مطبعة العرفان ، صيدا ، لبنان سنة ١٣٥٠ هـ / ١٩٣١ م .
ـ فلسفة التاريخ العثماني ، مطبعة « مكتبة صادر » ، بيروت ١٣٣٤ هـ / ١٩٢٥ م .

٩ ـ جيبــون ادوارد
اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها .

الجزء الاول : ترجمة محمد علي أبو درة ومراجعة احمد نجيب هاشم ، القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

الجزء الثاني : ترجمة لويس اسكندر ومراجعة أحمد نجيب هاشم ، القاهرة ١٩٦٩ .

الجزء الثالث : ترجمة محمد سليم سالم ومراجعة محمـد علي أبو درة ، القاهرة سنة ١٩٦٩ .

الاجزاء الثلاثة نشر الهيئة العامة للكتاب بالجمهورية العربية المتحـدة .

١٠ ـ دكتور حسن أحمد محمود
الإسلام في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة سنة ١٩٧٢ .

١١ ـ دكتور حسين مجيب المصري

تاريخ الادب التركي ، مطبعة الفكرة ، القاهرة سنة ١٩٥١ م.

١٢ ـ ديـل ، شارل
البندقيـة : جمهورية أرستقراطية ، نشر مكتبة المعارف بمصر ، نقله من الفرنسية الى العربية الاستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، القاهرة سنة ١٩٤٨ م .

١٣ ـ دكتور سالم الرشيدي
محمد الفاتح ، نشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الاولى ، القاهرة سنة ١٣٧٥ هـ/١٩٥٦ م .

١٤ ـ طاشكبرى ، أحمد بن مصطفى بن خليل
الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، وهو على هامش وفيات الاعيان لابن خلكان ، المطبعة الميمنية ، القاهرة سنة ١٣١٠ هـ .

١٥ ـ دكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي
فتح القسطنطينية ، نشر الهيئة المصرية العامـة للتأليف والنشر « دار الكتاب العربي » المكتبة الثقافية ، العـدد ٢٨٨ ، القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

١٦ ـ دكتور عبد العزيز محمد الشناوي
اوروبا في مطلع العصور الحديثة ، نشر دار المعارف بمصر ، القاهرة .

١٧ ــ دكتور عمر كمال توفيق
تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، دار المعارف بمصر ، القاهرة.
١٨ ــ فيشر ، هربرت
أصول التاريخ الاوروبي الحديث ، ترجمة الدكتورة زينب عصمت راشد والدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ومراجعة الاستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، نشر دار المعارف بمصر ، القاهرة سنة ١٩٦٢ م .
١٩ ــ كوپيــه اليسوعي ، الاب دي
كشف المكتوم في تاريخ آخري سلاطين الروم ، نقلـه مـن الفرنسية الى العربية خليل بن خليل البدوي ، بـيروت سنة ١٨٩٠ م .
٢٠ ــ دكتور محمد صفوت مصطفى
السلطان محمد الفاتح : فاتح القسطنطينية ، نشر دار الفكر العربي ، القاهرة سنة ١٩٤٨ .
٢١ ــ محمد عبد الله عنان
القسطنطينية ، مقالة نشرت بمجلة العربي ، العـدد ٩٧ ، ديسمبر ١٩٦٦ ، الكويت سنة ١٩٦٦ م .
٢٢ ــ محمــد فريــد بك
تاريخ الدولة العلية العثمانية ، الطبعة الثالثة ، مطبعـة التقدم بمصر ، القاهرة سنة ١٣٣٠ هـ/١٩١٢ م .

٢٣ ـ محمد فؤاد كوپريلي
قيام الدولة العثمانية ، ترجمة الدكتور احمد السعيد سليمان وتقديم الاستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، القاهـرة سنة ١٩٦٧ م .

٢٤ ـ مجلة حضارة الاسلام ، دمشق ، السنة الثالثة ١٣٨٢ هـ ، العدد التاسع .

ثانيا ـ المراجع الفارسية والتركية :

١ ـ ابن بيبي ، ناصر الدين يحيى بن محمد
الاوامر العلائية المعروف باسم « تاريخ ابن بيبي » ، تحقيق نجاتي لوغال وعدنان صادق ارزي ، انقرة سنة ١٩٥٦ م .

٢ ـ أحمـد مختار پاشـا
فتح جليل قسطنطينية ، استانبول سنة ١٣١٦ هـ .

٣ ـ خير الله أفندي
تاريخ دولت علية عثمانية ، قسطنطينية سنة ١٢٨١ هـ .

٤ ـ الراوندي ، نجم الدين أبو بكر محمد بن علي بن سليمان
راحة الصدور وآية السرور ، تصحيح محمد اقبال آشتياني، طبع ليدن ، سنة ١٩٢١ م .

٥ ـ سعد الدين أفندي ، خواجـه
تاريخ التواريخ ، استانبول سنة ١٨٧٩ م .

٦ ـ شمس الدين سامي
قاموس الاعلام ، استانپول سنة ١٣١٤ هـ .

٧ ـ صولان زاده تاريخي ، استانپول سنة ١٢٩٧ هـ .

٨ ـ عاشق پاشا زاده تاريخي ، استانپول سنة ١٣٣٢ هـ .

٩ ـ علي بن ملوك منشي
ظفر نامه دربيان فتوحات السلطان محمد بهادر خان بن مراد خان (سلطان محمد دوم) ، طهران بدون تاريخ .

١٠ ـ فريدون بـك
مجموعة منشآت السلاطين ، قسطنطينية سنة ١٢٧٤ هـ .

١١ ـ دكتور فريدون نافذ أوزلق
تاريخ آل سلجوق در آناطولي ، لمؤلف مجهول ، صححه وقدم له الدكتور فريدون نافذ أوزلق ونشرته « انجمن تاريخ اسلام » ، انقرة سنة ١٩٥٢ م .

١٢ ـ كريم آق سرابي ، محمود بن محمد
مسامرة الاخبار ومسايرة الاخيار ، تحقيق عثمان توران ، انقرة سنة ١٩٤٣ م .

١٣ ـ سعيد نفيسي
تاريخ تركية ، وهو كتاب فرنسي الفه العقيد لاموش وقدم له المستشرق الفرنسي رينيه پينون وترجمه وعلق عليه

المرحوم سعيد نفيسي ، نشر كمسيون معارف دار ايران ، الطبعة الاولى ، مطبعة المجلس ، طهران سنة ١٣١٦ هـ.ش.

١٤ ـ مشكور ، دكتور محمد جواد

اخبار سلاحقة الروم (متن كامل سلجوقنامه ابن بي بي) ، وهو اعادة طبع وتحقيق المختصر الذي اخرجه المستشرق هوتسما « M. Th . Hositsma » في سنة ١٩٠٢ ، واخرجه باسم « مختصر سلجوقنامه » . وقد حقق الدكتور محمد جواد مشكور المختصر وأضاف اليه حواشي وتعليقات هامة وقدم له في عشرين صفحة ، نشر مكتبة مشمع جي تبريزي ، تبريز سنة ١٣٥٢ هجرية شمسية .

١٥ ـ نيشاپوري ، خواجه ظهير الدين

سلجوقنامه ، وبذيله كتاب « ذيلي بر سلجوقنامه » لابي حامد محمد بن ابراهيم وهو تتمة للكتاب الاول ، تحقيق اسماعيل افشار ، نشر مكتبة ابن سينا ، طهران سنة ١٣٣٢ هجرية شمسية .

16 — Fatih Divani . Istanbul , 1944 .

17 — Mirmiroglu , Fatih Sultan Mehmet II devrine ait vesikalar , Istanbul , 1945 .

18 — S, ukir , Zia , Fatih , Istanbul nasil aldi . Istanbul , 1942 .

ثالثا ـ المراجع الانجليزية والفرنسية :

1 — Cantemir . Demetrius . The history of the growth and decay of the Ottman Empire. (London 1743). N. Tindal .

2 — Creasy , Sir Edward S. History of Ottoman Turks . London 1878 .

3 — Eversly , Lord . The Turkish Empire . London , 1924.

4 — Gibb , E. W. A. History of Ottoman Poetry . London, 1900 .

5 — Gibbon , Edward . The History of the Decline and Fall of the Roman Empire . (ed . J. Bury) . London , 1909 - 1914 .

6 — Gibbons , Herbert Adams . The Foundation of the Ottoman Empire . Oxford , 1916 .

7 — Hammer, Joseph Von. Histoire de l'Empire Ottoman Paris , 1843. J. J. Hellert .

8 — Jonquière , Vte A. de la . Histoire de l' Empire Ottoman , Paris , 1914 .

9 — Lamouche, Colonel. Histoire de la Turquie. Paris, 1924.

10 — Miller, William. Trabizond, the last Greek Empire. London, 1926.

11 — Norman H. Baynes, The Bysantine Empire. London, 1946.

12 — Pears, Edwin. The Fall of Constantinople. being the Story of the fourth crusade. London, 1885.

13 — Schlumberger (Gustave), Le siège, la prise et le sac de Constantinople par les Turcs en 1453. Paris, 1922.

14 — Sykes, Sir Mark. The Caliphs, Last Heritage. A Short History of the Turkish Empire. London, 1915.

15 — Wayne S. Vicinich, The Ottoman Empire : Ist Recorded and Legacy, Published in Canada by D. Van Nostrand Company (Canada) LTD. Canada, 1965.

فهرس